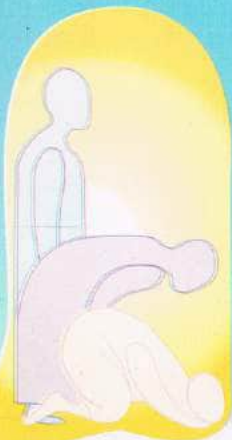


من أخلق القرآن

صفات عباد الرحمن في بيئات سورة الفرقان



الحلقة
الأولى

تأليف
الشيخ

سعيد محمد إبراهيم
(كعباش)

بلدية المسف
ولاية نجرانية

من أخلاق القرآن في بيان صفات عباد الرحمن

« الحلقة الأولى »

للمؤلف

سعيد محمد إبراهيم كعباش

المطبعة العربية - غرداية

1419 هـ - 1998 م

جميع الحقوق محفوظة

المطبعة العربية

11 - مح طالي احمد عرداية

Tel & Fax (09) 88.36.53

Tel : (09) 87.54.34

الإبداع القانوني رقم: 96/419

رسمك ISBN 9961-908-52-5

بسم الله الرحمن الرحيم

« المقدمة »

تبارك الله ربّي الرحيم الرحمن، علّم القرآن، خلق الإنسان علّمه البيان، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله القائل: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد :

فيا أيها القارئ الكريم، تعينت مرشداً بالمسجد الجامع لمدينة العطف - ولاية غرداية - في بداية السبعينات ولم أتجرأ في بداية مشواري في الوعظ والإرشاد أن أفتح مجال التفسير لكتاب الله، وكنت أتمثل في خاطري كلام الصديق (رضي الله عنه) أي أرض ثقلي وأني سماء تظلي إن قلت في كلام الله برأبي، وكنت لا أستشهد بآية من كلام الله في حديثي إلى الجمهور، حتى أطلع تفسيرها وأستوعب معناها من إحدى التفسير الكبرى على أنني - بفضل الله - لست أقل زادا ولا أضعف ذخيرة في العلوم الإسلامية من أولئك الذين تطلقوا على المنابر واعظين ومفتين، وقد تزودت من موارد معهد الحياة بالقرارة والجامع الزيتوني بتونس الحضراء، بما يؤهلني لخوض هذا الغمار، ويأخذ بيدي ويمسك خطاي للسير في هذا المضمار، وبعد أن خطوت الخطوات الأولى مستعينا بالله مسترشداً بتتاج الفطاحل من علماء التفسير قديماً وحديثاً، إطمأنت نفسي إلى الشروع في دروس

التفسير وشرح الحديث النبوي الشريف في حصص اسبوعية منتظمة، كنت أحضرها بكل اهتمام وعناية، فانطلقت - بعون الله - في تفسير الصور الصغرى، ثم تفسير السور التي كانت تتلى في المناسبات العديدة كسور: يس والكهف والأنعام، ثم شرعت في تتبع السور حسب ترتيبها في المصحف الشريف بدءاً من سورة الفاتحة، وقد انتهيت من تفسير الربع الأول - بفضل الله - وأنا بصدد ترتيبه وتسيقه وعسى الله تعالى أن يمد في حبل الأجل حتى أقدمه للطبع، وإلى جانب ذلك رأيت أنه من المفيد من باب التذكير والإرشاد أن أنشئ حلقات مختصرة بعنوان «من أخلاق القرآن» أختار لها من الآيات ما يعالج المواضيع الخلقية التي يهذب سلوك المؤمن، وتسمى فيه الحسن الديني ليتحلى بأخلاق القرآن، إقتداءً برسول الله ﷺ إذ كان خلقه القرآن كما وصفته أمنا عائشة (رضي الله عنها).

والتمن الأخير من سورة الفرقان خير نموذج لأخلاق القرآن، من بيان صفات عباد الرحمن، تناوله بالبيان والتفسير في ليالي شهر رمضان المعظم سنة 1417/1997 بالمسجد الكبير مدينة العطف، وها أنا أقدمه بين يديك - أيها القارئ المسلم - عساك تجد فيه ما يعينك عن كل فلسفة خلقية سمّوها البشر لأن منزل القرآن هو أعلم بمن خلق وهو اللطيف الخبير، وهو القائل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ تعني الله وإياكم بهدي كتابه المبين.

العطف يوم الجمعة 20 شوال 1417هـ / 28 فبراير 1997م

« المؤلف في سطور »

هو سعيد محمد إبراهيم - كعباش - من مواليد العطف ولاية غرداية بلاد الجزائر خلال سنة 1930 تلقى تعليمه الابتدائي في مسقط رأسه، ثم التحق بمعهد الحياة بالقرارة حيث حفظ القرآن وواصل دراسته الثانوية وفي سنة 1950 التحق بتونس لمتابع دراسته العالية في الجامع الزيتوني، كما التحق بالمعهد الحلدوني وحصل منه على دبلوم العلوم التطبيقية، عاد إلى بلده سنة 1954 ليتولى مهمة التعليم في مدرسة النهضة، وبعد الإستقلال الوطني اندمج في سلك التعليم العمومي أستاذا للأدب العربي في المتوسط، ثم في الثانوي بعد أن حصل على شهادة ليسانس من جامعة الجزائر سنة 1972 وفي 1980 تعين مديرا في التعليم الأساسي إلى أن أحيل على التقاعد لسنة 1990 التحق بحلقة العزابة للمسجد الكبير في العطف لسنة 1958 وتكفل بمهمة الوعظ فيه منذ 1970 ولا يزال يواصل مهمته في الدعوة إلى الله إرشادا وتفسيرا لكتاب الله وإفتاء وتنويرا وفقه الله وجزاه عن الإسلام خير الجزاء.

العطف يوم الجمعة 20 شوال 1417هـ / 28 فيراير 1997م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قدرة الله وحكمته في اختلاف الليل والنهار

(أ) - النص : ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرًا منيرًا وهو الذي جعل الليل والنهار حلقة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورًا﴾ الفرقان: 61-62.

(ب) - التحقيق اللغوي :

تبارك : على وزن تفاعل، والبركة هي كثرة الخير، فما أكثر نعم الله على خلقه، وأعظمها نعمة الهداية بنزول القرآن. بروجاً : منازل الكواكب السيارة سميت بالبروج أي القصور العالية لأنها لهذه الكواكب كالمنازل لسكانها. سراجاً : الشمس قال تعالى: ﴿وجعلنا سراجاً وهاجاً﴾. حلقة : إما على معنى يحلِف أحدهما الآخر فيعقب هذا ذلك وذلك هذا، وإما على معنى الاختلاف، أي هما مختلفان، والأول أقرب إلى معنى السياق.

(ج) - بين يدي النص :

جاء هذا النص مكملًا لما تقدم من أول سورة الفرقان التي افتتحت بنفس العبارة لتعظيم الله والتذكير بحليل نعمته في إنزال هداية القرآن والتبويه بشأن رسول الله وعالمية رسالته، ثم تكررت العبارة مرة ثانية في معرض الاستدلال على عظمة الله وقدرته إذ تفرد بالخلق ولا يعجزه أن يأتي لرسوله بما يتحداه به المشركون، كما لا يعجزه إحياء الموتى ونشرهم للبعث وما يترتب عليه من الجزاء للمساكين والكافرين.

وسورة الفرقان من السور المكية التي عالجت موضوع العقيدة الإسلامية بأسلوب بليغ، عالجتها في شقيها من الإقرار بالشهادتين: بأن لا إله إلا الله، محمد رسول الله :

ففي الشق الأول : ذكرت على وحدانية الله بالتعرض إلى بدع صنعته في لفت الأنظار إلى بعض الظواهر الكونية، وأنه القادر على تحقيق النشأة الآخرة بالبعث والجزاء وأن المكذبين بهما سوف يندبون حظهم. وفي الشق الثاني : تنوّه بشأن رسول الله وثبت صدقه وأمانته، وأنه لا تعارض بين بشريته، وتكريم الله إياه بالنبوة والرمالة، وأثناء العرض لنهايتين الدعائيتين في العقيدة الإسلامية فلعس ذلك الإيناس والتبني لقلب رسول الله وهو يواجه تلك المعركة العنيفة في تصحيح الأوضاع البشرية المتردية في الأباطيل والضلالات، يلخص الإمام الرازي موضوع السورة بقوله: «اعلم أن الله سبحانه وتعالى تكلم في هذه السورة في التوحيد، والنبوة وأحوال القيامة، ثم حتمها بذكر صفات العباد المخلصين الموفقين، ولما كان إثبات الصانع وإثبات صفات جلاله يجب أن تكون مقدما على الكل لا جرم افتتح الله ذلك بقوله : ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده﴾، ص: 44 م: 20.

(د) - البيان والتفسير قلت : ونفس التقديم والتمهيد تجيء عبارة ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا﴾ وهي في آن واحد رد لأولئك المستهترين من الكفار الذين ينكرون معرفتهم للرحمان بمثل ذلك الإستفهام الإستعراضي الذي يدل

على التطاول والعبادة، ثم التحايل الكلي ليعنى الاسم باستعمال كلمة «ماء عوضاً عن كلمة «من» وزادهم نفوراً أن كان الأمر من محمد الذي يتكبرون نبوته. وهؤلاء إذ يستكبرون عن السجود للرحمان، فهم بذلك في زمرة عباد الشيطان، ومن دلائل الرحمة في المعبود الحق ما يعرفونه من تلك البروج السماوية التي وضعوا لها أسماء وصنفوها لمعرفة منازل الكواكب، فأية بركة يتمتعونها في غير الله، وهو الخالق لتلك الأحرام الضخمة الهائلة وهم يتمتعون بها في ليل ونهار، وشركاؤهم لم يخلقوا من ذلك شيئاً، كما قال في شأنهم بأول السورة: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ، وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نَشُورًا﴾ وتعرض الآية إلى ظاهرة الليل والنهار في تقلبهما ليخلف أحدهما الآخر.

وبما أن الإنسان في إلفه للوئمة الواحدة في أي نظام كان، قد يغفل ويسهو، كان اختلاف الليل والنهار مجالاً للتأمل والتدبر في صنع الله، وأن ذلك لا يتم صدفة كما يدعيه الملحدون، والتأمل الواعي يستدعي الإرادة والإرادة يحقق الإنسان كل ما تقتضيه إنسانيته من الكمال النفسي والسمو الروحي ويستدرك ما فاتته بليل أو نهار، سيما في مجال العبادات والقربات.

وقد جاء في الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان : «إن الله يسطر بده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويسطر بده بالنهار ليتوب مسيء

الليل. والتعير بفعل: أن يذكر بفيد التجدد والإستمرار.

التوحيد أصل الدين :

تتضافر النصوص عند جميع المذاهب الإسلامية. على أن توحيد الله هو الركيزة الأساسية للإيمان، ومعرفة الله تعالى لا تتم إلا بالأدلة الناطقة والصامتة : فالناطقية هي الوحي المنزل من عند الله في بيان وجود الخالق المعبود وبيان صفاته العلية وأسمائه الحسنى ثم بيان واجب الخلق نحوه من حق عبادته وتعظيمه وتنزيهه إعتقاداً وقولاً وعملاً. فالشهادتان متلازمتان في أساس العقيدة الإسلامية :

جاء في مسند الإمام الربيع بن حبيب (رحمه الله) خرج رسول الله ذات يوم إلى المسجد، فوجد أصحابه عزين : يتذكرون فنون العلم، فجلس إلى ثلاث خلق.

أما الحلقة الأولى : فيقرؤون القرآن فقال لهم : بهذا أُرسلني ربي وقرأ : ﴿وَأَوْحِي إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأَتَذَكَّرَ بِهِ وَمَنْ يُلَغْ﴾. وأما الثانية : فيتكلمون في الحلال والحرام، فلم يقل شيئاً لأفضلية الآخرين عليهم.

وأما الثالثة : فيذكرون توحيد الله تعالى و نفى الأشياء و الأمثال عنه. فأطال المجلس مع هؤلاء إستحساناً لما هم فيه بقول الإمام جابر ابن زيد (رضي الله عنه) تعليقا على الحلقة الأخيرة : يقول: لأن التوحيد معرفة الله عزوجل ومن لا يعرف توحيد الله فليس بمؤمن.

وجاء في نص عقيدة التوحيد

«إن سأل سائل فقال : ما أصل الدين؟ فقل الدين هو التوحيد

لقلوه تعالى: ﴿إِن الدّين عند الله الإسلام﴾.

والإسلام لا يتم إلا بقول وعمل. أما القول فشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا نَد ولا ضد ولا قرين ولا شيء ولا مثل، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن ما جاء به حق من عند ربه، وأما العمل فالإتيان بجميع الفرائض.

الإيمان يزيد و ينقص :

لقد ثبت من الأدلة الشرعية أن الإيمان يزيد و ينقص. وذلك بالنسبة إلى الأشخاص فيما بينهم، وجعل الله ذلك أساسا للتفاضل. ويستطيع المسلم أن يرتقي في سلم الفضل والقربى عند الله إلى درجة الصديق، لقلوه تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصّٰدِقِينَ وَالشّٰهِدَاءِ وَالصّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا، ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾.

وبالنسبة إلى الشخص الواحد. يزيد وينقص الإيمان في قلبه على قدر ذكر الله تعالى أو غفله عنه يقول (عليه السلام) : «إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب فاسألوا الله تعالى أن يجلد إيمانكم» رواه أحمد.

ويقول : «الإيمان نيف وسعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق».

قلت : إن نصوص القرآن تدل على زيادة الإيمان و نقصانه. يقول تعالى في شأن المؤمنين : ﴿لِيَزِدّٰدُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ الفتح: 64.

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ «القتال: 17»
 ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون﴾ «التوبة: 124».
 وهذا أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) يشهد له رسول الله بكمال
 الإيمان بحيث لو وضع في كفة لرجح إيمان الأمة بكاملها، ويقول فيه
 الرسول، ما فضلكم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام، ولكن بشيء، وقر في
 صدره وبذلك بلغ مرتبة الصديقين.

مَنْ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ؟

(أ) - النص : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾

(ب) - التحقيق اللغوي :

الهون : مصدر الهين. وهو السكينة والوقار. فهو إما حال : أي يمشون هينين : أي هم متواضعون يعلوهم السكينة والوقار. أو هو صفة للمشي : أي مشيًا هينًا بمعنى أن تكون صفة مشيهم مأمية لأخلاقهم في التواضع والخلم. الجاهلون : الجهل هنا بمعنى السفاهة والحقوة في الطبع. صفة الخلم : سلامًا : هو مصدر بمعنى السلامة أي حين تسلمون منكم، أو بمعنى النجاة للعبودية. وهي بمعنى التأمين بين السلم والسلام عليه.

(ج) - البيان والتفسير :

على ذكر المستهترين بالشبهة الجاهدين لرحمة الله في جلال صفته المقدمة «الرحمان» وبعد التقديم المناسب بذكر آيات عظمت في حلقة الليل والنهار وأنهما مجال للمذاكرين الشاكركين، يتخلل السياق إلى الإشادة بالمؤمنين وتعداد أوصافهم التي كان بها ذلك الشريف بأنهم عباد الرحمن. لأنهم آمنوا بعبد الله الذي تنزل عليه الفرقان، فكانوا أخرياء بذلك الشريف من العبودية للرحمان، على عكس أولئك الذين أنكروا معرضهم له، وصحابة رسول الله بالطمع هم النموذج الأعلى لهذا النوع من المؤمنين، ويلحق بهم كل من تحققت فيه تلك الصفات الحميدة. وهم الجماعة التي يرتبها الإسلام ويكونها لنشر

الصالح والخير وإفراد الخالق بالعبادة والدعاء، وهم المستحقون لرعاية الله والموعودون بالجنة، وهذا الصنف من الناس لا يدخلون منهم زمان ولا مكان، سواء قتلوا أو كثروا تبعاً لأوضاع اجتماعات البشرية وتداول الأيام عليها بين القوة والضعف والصالح والفساد.

وفي التركيب اللغوي : يكون عباد الرحمان مبتدأ خبره يحتمل أن يكون هو قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ﴾ والصلوات الأخرى تكون معطوفة عليه. وإما أن تكون الصلوات كلها نعتاً لعباد الرحمان ويكون الخبر هو قوله تعالى في آخر السورة : ﴿وَأُولَئِكَ يَجْزُونَ الْعَرْشَ بِمَا صَبَرُوا﴾ فما هي تلك الصفات التي إمتدحهم الله بها؟!.

هي عند الإمام الفخر الرازي تسع صفات بينما هي عند الإمام القرطبي، إحدى عشرة صفة لحصها في مايلي :

التواضع، الحلم، التهجد، الخوف، ترك الإسراف والإقتار التزاهة عن الشرك، البعد عن الزنى والقتل، التوبة وتجنب الكذب، العفو عن المسيء، قبول المواعظ، الإتهال إلى الله، وأياً كان العدد، فإن هذه الصفات تتوزع بين التحلي عن الأباطيل والصلوات، والتحلي بالكمالات الدبية والآداب الشرعية أموة برسول الله (عليه الصلاة والسلام).

- الصفة الأولى : التواضع

قال تعالى : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ يتردد التفسير بين اعتبار «هونا» حالاً أي بمعنى هينين. يتسمون بالسكينة والوقار في معاملتهم للناس وفي جميع تصرفاتهم. وإذا اعتبرنا

«هونا» صفة لمصدر المشي المحذوف فيكون المعنى أنهم غير متعجرفين في مشيتهم كما يفعله الشجيرات إذ يقرعون الأرض بأرجلهم كبرا وخيلاء يقول السيد قطب (رحمه الله) في توجيه صفة المشي بالهون: «فالمشية ككل حركة تعبير عن الشخصية، وعما يستكن فيها من مشاعر. والنفس السوية المطمئنة جادة قاصدة، فيها وقار وسكينة وفيها جد وقوة. وليس معنى (يمشون على الأرض هونا) أنهم يمشون متماوتين متكسي الرؤوس، متداعي الأركان، منهاري البنيان، كما يفهم بعض الناس ممن يريدون إظهار التقوى والصلاح، ج: 19 ص: 52. قلت، ورب ماش بسكينة ووقار وفي نفسه غلّ وحقد وحسد يخدع الناس بسعته ووقاره ليتصيد المنافع العاجلة.

يقول الشاعر محمود غنيم :

كم لحية أجدى على ربّها من ألف سهم بيد الصائد
وقد نهى الله تعالى عن مشية الإحتيال فقال في سورة الإسراء :
﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا، إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ الآية: 37. كما ورد ذلك في وصية لقمان لابنه حين قال :
﴿واقصد في مشيك واغضض من صوتك، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾ الآية: 19. وقال له قبل ذلك : ﴿ولا تصاعر عذك للناس ولا تمش في الأرض مَرَحًا إن الله لا يحب كل مختال فخور﴾ الآية: 18.

وقد وصف الصحابة مشية رسول الله وهو المثل الأعلى في التواضع، فقالوا عنه : «إنه عليه الصلاة والسلام إذا زال زال تقلعا، ويخطو

تَكْفُرُوا، ويمشي هونا، ذريع المشية إذا مشى كأنما يحط من صيبه.
 وخلق التواضع لم يرد في القرآن الكريم بهذا اللفظ ولكن،
 وردت ألفاظ أو تعابير تصويرية كما في هذه الآية الكريمة: فمن
 الألفاظ قوله في صفة أصحاب رسول الله : ﴿الَّذِينَ مَعَهُ أَشْدَاءُ عَلَى
 الْكَفَّارِ رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ فالرحمة من خلق التواضع ومن ذلك وصفه
 تعالى للقوم الذين يحبهم ويحبونه ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ
 وَيُحِبُّونَهُ، أَذِلَّةَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ «المائدة: 54». والمراد
 بالدلة هنا التواضع واللين مقابل الشدة والعرة على الكافرين.

ويقول في حق الوالدين على وليدهما : ﴿وَاحْفَظْ لَهُمَا جَنَاحَ
 الذِّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ «الإسراء: 24».

وضد التواضع التكبر وقد شن القرآن حملة شعواء على المتكبرين
 المتجبرين فنهى عن كل مظاهره من الإحتيال والبطر وتصغير الحد،
 ورفع الصوت، وللتكبر دوافع كثيرة مما يغتر به الناس من المال أو العلم
 أو الجاه أو القوة والشهرة أو غير ذلك مما يدفع المتكبر إلى التعاول
 على غيره وتحقيره وإذائته. ولذا ينهى الله حبه عن المختال الفخور،
 ويتوعده بالخذلان والضلال بقوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى
 كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ «غافر: 35»، ويقول في سورة الزمر : ﴿أَلَيْسَ
 فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ «الآية: 60». وقد روي عن رسول الله
 ﷺ أنه قال : «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ».

ويشجلى خلق التواضع في تصرفات عباد الرحمن في علاقاتهم
 بالله إجلالا وخضوعا وقناعة بحكمة ما شرخ، ورضي بما حكم

وقضى، ومع رسول حيا وتقديرا واقتداء بسنته، ومع خلق الله رحمة
ولينا في العشرة، ووفاء بحقهم في المعاملة وقد ورد في الحديث: «ما
زاد الله عبدا بعفو إلا عزاً، ولا تواضع أحد إلا رفعة الله».

يقول الإمام ابن القيم في معنى الآية: إذا كان الله قد رضي
أخاك المسلم عبداً، أفلا ترضى أنت به أخاً؟.

والبدء بهذه الصفة الكريمة لعباد الرحمان دليل قاطع على مالها من
قيمة عند الله، ويتفزع عنها كل الصفات الأخرى من الأخلاق الكريمة
المذكورة في الآيات اللاحقة، لأن التواضع يدل على قوة الشخصية،
وذلك بالتحكم في الغيرة العنصرية المودعة في ذات الإنسان، فلا ينفلت
زمامها عن التواضع العاقل. بل هو يوظفها بمقدار مائدعو إليه الحاجة في
الحفاظ على الكرامة وضمان البقاء. - والله أعلم -.

- الصفة الثانية : الحلم

قال تعالى : ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ الخطاب هو
أفصح تعبير ينشئ عن عقل المتكلم ورزاقته، أو جهالته وطيشه، والمرء معقود
بلسانه، واللسان ترجعان لما في الجنان، كما يقول زهير بن أبي سلمى:
لسان الفنى نصف ونصف فؤاده فلم ينق إلا صورة اللحم والدم
فإذا كان عباد الرحمان يتواضعهم في معاملة الناس لا يمكن أن
يصدر عنهم أذى لغيرهم تكرماً منهم وإباء للظلم، فكيف يواجهون
الأذى حين يأتي من قبل السفهاء الجاهلين؟.

والظلم من شيم النفوس كما يقول المتنبي :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد

ذا عفة قلعة لا يظلم

فإذا كانت عفة التعفف عن الظلم هي التواضع والجلوم في عباد
الرحمان، فإن الجهالة والسفاهة هي الدافع للظالم أن يؤدي غيره. وقد
كان المشركون في مكة يؤذون الرسول وأصحابه بالسب والشتيم للكبراء
من المؤمنين، وبالقتل والتعذيب للمستضعفين منهم، فيتحملون ذلك
الأذى بالإعراض عنهم، لأنهم لم يؤمروا بعد بقتالهم، كما قال تعالى
في شأنهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ
أَعْمَالُكُمْ. سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ (القلم: 55).

وقد وصف الله هذه الظاهرة وصفا مقرونا بالتهديد والوعيد في
سورة المطففين بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا
يُضْحَكُونَ. وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ. وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا
فَاكْهِنِينَ. وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُونَ وَمَا أَرْسَلُوا عَلَيْهِمْ
حَافِظِينَ. فَايَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ. عَلَى الْأَرَائِكِ
يَنْظُرُونَ. هَلْ ثَوَابَ الْكُفَّارِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (الآيات 136/29).

وردهم على هؤلاء بقولهم: سلاماً، بمعنى السلامة أو بمعنى
التحية المعهودة، فإن هذا الرد يعني المشاركة بين الطرفين، لآخر فيها
ولاشر. وكم للقط السلام في التحية من أثر يدي في النفوس المجرحة
يفعل فعله في إمساكات العضب وتهدة الثوران.

والنفوس العظيمة لا تستخفها جهالة الحمقى، ولا تستفزها
سفاهة الجاهلين. لأن في مهاجمة العظمى وانشغالها الكبري ما يدفعها

إلى الترفع عن سقاسف الأمور ضونا لكرامتهم وحفاظا على قدرهم
وشرفهم، وشحا بأوقاتهم أن يضيعوها في المهارات.

وقد قال الشاعر الحكيم :

لو كل كلب عوى ألغته حجرا

لأصبح الصخر مثقالا بديار

فهي في معاملتها مع الناس بين الكف عن الأذى بتواضعها
وتحمل الأذى بحلمها. وكل من الصفتين الحميدتين تبعان من قوة
الشخصية وقوة الإيمان. يقول الإمام ابن عاشور: «ولأجل المناسبة بين
الصفتين عظفت هذه على الصلة الأولى، ولم يكرر إسم الموصول كما
كرر في الصفات بعدها». م: 19، ص: 70.

من أسماء الله الحسنى «الحليم» يقول تعالى: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ
وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى. وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ «البقرة: 263». وقد
عرف الحكماء الحليم بأنه الأناة وضبط النفس، أي أنه إخضاع النفس
لسلطان العقل. وتأتي هذه الصفة وسطا بين رذيلتين: الغضب والبلاهة.
فالحليم يملك العزة والقدرة للانتقام، ولكنه لا يفعل ذلك. لما في
طبعه من الكرم وعلو النفس، غير أن الحليم بالنسبة لله تعالى كما يقول
الإمام القرطبي (رحمه الله) : هو ما يفيد معنى طرح المؤاخظة وأنه باب
رفق وتوسعة على الخلق يقول المولى تبارك وتعالى في سورة يوسف:
﴿وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ إِسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ
فَإِذْ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ «الأنعام: 11». ورسل
الله هم النموذج الأعلى في الحلم، وقد أشاد بهم القرآن الكريم لهذه

الصفة في قصصهم مع أقوامهم، ولأنك أن سيدنا محمدا ﷺ هو
 في القصة بهذا الخلق الكريم.. حين بدأ في تبليغ الرسالة مستضعفا في
 مكة، والله تعالى يقول له ولإصحابه: ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا
 الصَّلَاةَ﴾. ويقول له مرشدا وأخذا يده إلى قمة الأخلاق العظيمة،
 ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ وإما ينزغك من
 الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ﴿الأعراف: 200/199﴾. وهو
 أيضا القصة في ذلك حين انتصر على أولئك الذين ناصبوه العدا،
 وحاربوه وآبوا عليه الخلفاء، وقد دخل بلدهم عترة فقال لهم إذهبوا
 فأنتم الطلقاء.

ودون الأنبياء والرسل تأتي مراتب الأولياء والصلحاء، ومنازل
 العظماء والحكماء، وكم من قصص مثيرة تروى في الحلم لأسياد
 وزعماء في أقوامهم مثل قيس بن عاصم عند العرب.. والأحنف بن
 قيس وغيرهما كثير.

يروى عن قيس أنه كان جالسا بقاء داره، فدخلت عليه جماعة
 تحمل قبلا وشخصا مكتوفا، فقالوا له: هذا ابنك قد قتله أخوك، فلم
 ينزعج ولم يضطرب، بل إلتفت إلى أحد أبنائه وقال له: قم فأطلق عن
 عمك ووار أخاك، واحمل إلى أمه مائة من الإبل ثم أشد يقول:
 أقول للنفس تأمأ وتعزبة • إحدى يدي أصابني ولم ترد
 كلاهما حلف عن فقد صاحبه • هذا أخي حين أدعوه وذو ولدي
 ومن حلم الأحنف أن رجلا تبعه بالشتم والسباب إلى حبيته،
 فقال الأحنف للرجل السباب: يا هذا إن كان بقي في نفسك شيء

فهاهنا وانصرف، لا يسمعك بعض سفهاكنا فتلقى ماتكره وفي كل قوم يشتهر هذا الصنف من الناس: وهذا سقراط الفيلسوف تبعه أحد السباين من خصومه وسقراط لا يلتفت إليه، وعندما هدده خصمه بأنه سيسمع عشرات الشنائم إن تفوه بكلمة واحدة أحابه سقراط بهدوء ورزاة قائلا: ليس تفوهت بمئات الشنائم ما سمعت مني واحدة. وكان العرب تغلب عليهم الغضبية في الإنتقام، فيالغون في العقوبة، ويغالون في الأخذ بالنار وقد قال قائلهم:

ألا لا ليجهلن أحد علينا • فنجهل فوق جهل الجاهلينا
فهذب الإسلام نفوسهم وضبط جموحهم، بل حول تلك الغضبية القبلية إلى أعداء دينهم حتى استحقوا ذلك الوصف الكريم من الله تعالى: ﴿أَشْدَاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ والقرآن الحكيم في إرشاده لم يحاول أن يخلق فيهم تلك الغيرة وذلك الحماس في الدفاع عن دمارهم وكرامتهم، بل وجهها إلى الحد المعقول بمثل قوله تعالى في سورة النحل وهي مكية: ﴿إِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَاقَبْتُمْ بِهِ. وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ، وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ الآية: (172)، وبمثل قوله تعالى في سورة الشورى وهي أيضا مكية: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا. فَمَنْ عَفَى وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ. إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ. وَلَمَنْ انتَهَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ. إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيُغَوِّونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ أَحْقٍ. أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ الآية: (40/43). جعلنا الله تعالى في مصاف أولى العزم صابرين شاكرين، والله أعلم.

- الصفة الثالثة : التهجّد

(أ) - النص : ﴿وَالَّذِينَ يَسْتَوُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ «الفرقان: ١64».

(ب) - التحقيق اللغوي :

بات : يبيت : قال الزجاج: بات الرجل يبيت إذا لم يركب الليل نام أو لم يتم سجدا : ج ساجدا. قياما : جمع قائم كصحاب قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسُجِّدُوا لَهُ مُقَابِلًا﴾. التهجد : القيام من النوم إلى الصلاة. نافلة : الغلة لغة: الغيبة والهبة والبطوح: أي الزيادة على الواجب، ومنه النافلة في الصلاة.

(ج) - البيان والتفسير :

هذه هي الصفة الثالثة لعباد الرحمن معطوفة على ما قبلها بإعادة الموصول «الذين» للتأكيد. فهم كما قيل عنهم: أمود بالنهار وهبان بالليل جهادهم لا يتقيد بزمان ولا مكان: ففي النهار يجاهدون غرور أنفسهم وتوازغ الشيطان في معاملاتهم لأصدقائهم وأعدائهم بالرحمة أو الشدة، وفي الليل يناجون ربهم خوفا وطمعا كما قال عنهم تبارك وتعالى في سورة السجدة: ﴿تَسْتَخْفِي جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ، فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ «آية: 16/17». وقد وردت نصوص أخرى في القرآن والسنة تشيد بقيام الليل للتهجد زيادة على ما فرضه الله على عباده، لتركيز روح المبادرة إلى الخير في نفسه، والتنافس في أعمال البر، فقال جل من قائل في سورة الذاريات: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ. آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ. إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ

محبين كانوا قليلا من الليل ما يهجعون. وبالأصحاح
 هم يستغفرون ﴿ والآيات: 15/18 ﴾، ويقول تعالى في سورة النور:
 ﴿أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة
 ربه، قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو
 الألباب﴾ الآية: 99، ويصف الله تعالى: أولو الألباب أي الذين
 يتأملون بعقولهم، يصفهم في سورة آل عمران بأنهم ﴿الذين يذكرون
 الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتكبرون في خلق السماوات
 والأرض﴾ الآية: 191، فهذه النصوص الكريمة تؤكد ماورد في هذه
 الصفة لعباد الرحمن من أنهم «يبتون لربهم سجدا وقياما»، وليس
 المراد من فعل «يبتون» بأنهم لا ينامون الليل كله، بل المقصود من
 التهجد هو القيام من النوم لأجل العبادة.

وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أحبب أحدكم إذا
 قام من الليل كله أنه قد تهجد. إنما التهجد الصلاة بعد رقدة، ثم
 الصلاة بعد رقدة، ثم الصلاة بعد رقدة»، ويؤيد ذلك قوله تعالى:
 ﴿تجافى جنوبهم عن المضاجع﴾، أي أنه قد حصل لهم نوم قبل
 قيامهم للصلاة والتحريض على الإتيان بالتوافل لتدريب للمؤمن على
 الإستزادة من فعل الخير للإستشراق إلى منزلة الإحسان التي ينال بها
 محبة الله، فقد ورد في الحديث القدسي الذي رواه الإمام البخاري:
 «من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء
 أحب إلي مما أفترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالتوافل حتى
 أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به،

ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها. وإن سألتني لأعطينه، ولئن استعاض بي لأعبدنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته.

وخصت الآية من أعمال الصلاة ركني القيام والسجود للإهتمام بهما، وقدمت ذكر السجود عن القيام، لأن السجود هو الصورة الأقوى تعبيرا للخضوع والتذلل إلى الله، ولقوله (عليه الصلاة والسلام): «أقرب ما يكون العبد إلى الله وهو ساجد».

وأورد الإمام القرطبي أياتا في معنى الآية نذكرها إتماما للفائدة: لله قوم أحلصوا في حبه • فرضي بهم واختصهم خداما قوم إذا جن الظلام عليهم • باتوا هنالك سجدا وقياما خمس البطون من التعفف ضمرا • لا يعرفون سوى الحلال طعاما فإذا كان ما تقدم من النصوص في صفات عباد الرحمن لا يجعل من قيام الليل أو غيره من النوافل فرضا محتوما على المؤمن فإنه في حق رسول الله فرض لازم، كما ذهب إليه كثير من العلماء عند تفسير قوله تعالى: ﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا﴾ (الإسراء: 79)، وفي قوله في سورة المزمل: ﴿يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه، ورتل القرآن ترتيلا﴾ (الأنبياء: 01، 04). ويلاحظ أن الآيتين ذكرتا في التهجد تلاوة القرآن وحسن ترتيله يقول السيد قطب (رحمه الله) في تفسير الآية الأولى «ومن الليل فتهجد به نافلة لك»، والتهجد الصلاة بعد نومة أول ليل، والضمير في «به» عائد على القرآن، لأنه روح الصلاة وقوامها.

قلت : روي عن ابن عباس: أنه من صلى ركعتين أو أكثر بعد العشاء، فقد بات لله ساجدا وقائما، غير أن معنى التهجد لا يتحقق إلا بعد رقدة كما ورد عن رسول الله في الحديث السابق، ومناط القبول عند الله ليس هو كثرة عدد الركعات بقدر ما هو الإخلاص في طاعة الله بمراعاة شرطين أساسيين :

(أ) - حسن القيام بالغرائض وأدائها على الوجه الأكمل.

(ب) - تحري لقمة الحلال في ما يطعمه المؤمن، لأن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبا.

ومجال التوافل واسع لا يقتصر على التهجد بالليل، بل حسب المؤمن أن يكون قلبه هينا لينا يخشيه الله.. ولسانه رطبا حلوا يذكر الله، قال معاذ بن جبل لرسول الله ﷺ : أحبرني بأفضل الأعمال وأقربها إلى الله، فقال عليه الصلاة والسلام: «أن تقوت ولسانك رطب من ذكر الله».

فإذا كان الرسول يتعهد بالليل - وهو المعفور له - فكيف بنا نحن العارفين في الذنوب إلى الأذقان، فما أخرجنا إلى التحلي بحفات عباد الرحمن. - والله أعلم. -

دعاء الرسول عند قيامه للتهجد :

كان يقول اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض، ولك الحمد أنت قيوم السماوات والأرض، ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن، أنت الحق، وقولك الحق، ولقاؤك حق، والجنة

حق، والدار حق، اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك
أنت وبك خاصمت وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وأخرت
وأستررت وأعلنت، أنت إلهي لا إله إلا أنت.

ويقول: اللهم عات نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها،
أنت وليها ومولاها، اللهم اهْدني لأحسن الأخلاق فإنه لا يهدي
لأحسنها إلا أنت، وأصرف عني سيئها، فإنه لا يصرف سيئها إلا أنت،
أَسْأَلُكَ مَسْأَلَةَ الْبَائِسِ الْفَقِيرِ الْمُسْكِينِ وَأَدْعُوكَ دَعَاءَ الْمَغْتَرِ الْذَلِيلِ. فلا
تجعلني بدعائك ربي شقياً، وكن لي رؤوفاً رحيماً حقياً، يا خير
المسؤولين، وبأكرم المعطين.

- الصفة الرابعة : الخوف من عذاب جهنم

(أ) - النص : ﴿والذين يقولون : ربنا أصرف عنا عذاب جهنم. إن عذابها كان غراما 65 إنها ساءت مستقرا و مقاما 66﴾ «الفرقان».

(ب) - التحقيق اللغوي :

إصرف عنا : باعد عنا ولجنا من النار. غراما : هلاكها وعذابها ملح دائم، ومنه لفظ «الغريم» أي لزوم الدائن لمدينه : ساءت : بمعنى «سئ» للدم. مستقر : مكان الاستقرار. المقام : مكان الإقامة.

(ج) - البيان و التفسير :

الخوف من عذاب الله كما جاء الوعيد به في القرآن الكريم جاء مناسبا للصفة التي قبلها من التهجيد إلى الله و حسن عبادته، مما يدل على قوة إيمانهم بالله واليوم الآخر وهما دعامتا الإيمان الصحيح الذي يركز على العلم والمعرفة بالله. قال الإمام القرطبي في هذا المعنى : «إنهم يقولون ذلك عن علم، وإذا قالوه عن علم كانوا أعرف بعظم قدر ما يطيلون، فيكون ذلك أقرب إلى النجح» الجامع لأحكام القرآن م: 13 ص: 72.

قلت : إن هذا القول يشي عما في قلوبهم من خوف ووجل سواء قالوا ذلك في قيامهم وسجودهم كما ذهب إليه ابن عباس، أو كانت تردده ألسنتهم دعاء كلما اعتلجت خواطر الخوف في نفوسهم كيفما كانت أحوالهم، لأن أقوالهم هذه متناسبة مع أعمالهم الحيرة.

فهم لشدة خوفهم من الله لا يدرون أيقبلها منهم أم يرفضها كما جاء قوله تعالى من سورة المؤمنون : ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ، وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ، وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَّةٌ أَنْهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (الآيات: 157-160).

وقد روى الإمام الترمذي عن عائشة (رضي الله عنها) أنها قالت: يا رسول الله. «الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَّةٌ» هو الذي يسرق ويترني ويشرب الخمر، وهو يخاف الله عز وجل؟ قال : «لا يا بنت الصديق! - ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق، وهو يخاف الله عز وجل».

قلت : اتصاف عباد الرحمن بهذه الصفة الحميدة، وقيامهم بذلك النوع من العبادة إذ يتجهدون بالليل اجتهادا واصطبارا، هو دليل على سعيهم في مرضاة الله، لأنه صمام الأمان من عذاب الله. لأن العمل المبرور في تقييم المؤمن الوفي ليس بالضروري ان يكون مقبولا عند الله، فهو فيه بين الخوف والرجاء وقد علمنا الله تعالى ذلك حتى لا يغتر فقال جل من قاتل من سورة النجم : ﴿إِنْ رِبْكَ وَاسِعٌ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بَطْنِ أُمَهَاتِكُمْ، فَلَا تَرْكَبُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ (الآية: 32).

وهذا رسول الله (عليه الصلاة والسلام) يعلم أصحابه كيف يتمسكون رضي الله، وكيف يترددون في معنى أعمالهم بين الخوف والرجاء حين قال لهم : «لا يدخل الجنة أحدكم عمله. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا إن تعلمني الله برحمته».

والجملتان : ﴿إِنْ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا﴾، إنها ساءت مستقرا ومقاما. يجوز أن تكونا من كلام الداعين، أو هي من كلام الله حسب اختلاف التفسيرين، وهما على أي احتمال تعليل لسؤالهم صرف عذاب جهنم عنهم. ودم كبير لذلك العذاب، مما يدل على أنهم مؤمنون به حتى الإيمان وإن لم يعاينوه، وحسبهم من وعيد الله به ما يسمعون في القرآن من أوصاف جهنم تثير في نفوسهم الرهبة، ويشعرون لسماعها حتى كأن زفيرها في آذانهم.

نصوص حول عذاب جهنم :

أ - من القرآن الكريم :

- ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عِيدٍ﴾ من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه. ويأتيه الموت من كل مكان. وما هو بميت. ومن ورائه عذاب غليظ ﴿إبراهيم: 17/15﴾.

- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُعَذِّبُهُمْ نَارًا﴾ كلما نصبت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليزوقوا العذاب إن الله كان عزيزا حكيما ﴿النساء: 56﴾.

- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ كذلك تجزي كل كفور. وهم يصطرحون فيها ربنا أخرجنا بعمل صالحا غير الذي كنا نعمل. أولم نعتزكم ما يتذكر فيه من تذكر؟؟ وجاءكم النذير؟؟ فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴿فاطر: 36﴾.

ولأنكاد سورة من القرآن الكريم تخلو من ذكر جهنم وما ينظر فيها للكافرين الظالمين.

(ب) - ومن السنة النبوية :

يُحدِّث الأحاديث الكثيرة تتفاوت قوة وضعف، سيما تلك التي يصف فيها رسول الله أنواعاً من العصاة وهم يتعذبون في جهنم بألوان من العذاب، وقد رأى من آيات ربه الكبرى ليلة الإسراء والمعراج - ولعل أبلغ ما روي عنه (عليه الصلاة والسلام) هذا الحديث الذي يشخص فيه نعيم الجنة وعذاب النار فيقول : «أرغبوا فيما رغبكم الله، واحذروا وخافوا ما خوفكم الله به من عذابه وعقابه ومن جهنم. فإنه لو كانت قطرة من الجنة معكم في دنياكم التي أنتم فيها طيبتها لكم. ولو كانت قطرة من النار معكم في دنياكم التي أنتم فيها خبيثتها عليكم. وقد ورد في السنة هذا الدعاء لسيدنا داود (عليه السلام) : «الاهي لا صبر لي على حر شمسك، فكيف صبري على حر نارك؟» ولا صبر لي على صوت رحمتك، فكيف على صوت عذابك».

ميزان الخوف والرجاء في قلب المؤمن :

نما جاء في عقيدة التوحيد، «نما يجب على المكلف المعرفة به: الأمر والنهي، والمثل والدلائل، والخوف والرجاء والولاية والبراءة يعقد الشيخ إسماعيل الجييطالي (رحمه الله) في كتاب القيم وقواعد الإسلام، يعقد فصلاً بين فيه متى يجب أن يتوازن الخوف والرجاء في قلب المؤمن، ومتى يجب أن يميل أحدهما عن الآخر. نلخص

ما قاله فيما يلي:

أ - يجب على العبد أن يعدل بين الخوف والرجاء في قلبه، بحيث لا يميل أحدهما عن الآخر، لأن الميل إلى الخوف يدعو إلى الانحسار من رحمة الله، وهو يقول: ﴿إِنَّمَا لَا يَأْمَنُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ يوسف: 87. وإن مال إلى الرجاء، خشي عليه الأمن من عذاب الله. وهو يقول: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الأعراف: 99. ويقول رسول الله: «لو وُزِنَ خوف المؤمن ورجاءه بميزان تبرص ما زاد أحدهما عن الآخر».

ب - يقول العلماء: إذا احتضر المؤمن والرجاء في تلك الحالة ألقى به وأحق كما روي حذيفة بن اليمان حين احتضر أنه قال: «اللهم أمرتنا أن نعدل بين الخوف والرجاء. فالآن الرجاء فيك أمثل» ثم يقول الشيخ إسماعيل (رضي الله عنه): «والخوف والرجاء فريضة غير محدودة بين يثتان في القلب بفرائض غير محدودة كبر الآباء والبنين على سوائف الآثام، ويثتان أيضا بهما بجهل المصير وعاقبة الخاتمة، وسجمل قبول التوبة إذا تاب من ذنب اقترعه، وهما من أفعال العباد يتفاضلون فيها» انتهى قوله بتصريف. - والله أعلم - جعلنا الله من الراجين لنوابه الخائفين من عقابه.

نموذج من عباد الرحمان :

يروى عن التقي الزاهد حاتم الأصم أنه قيل له: كيف تصلي؟ فقال: «إذا أردت الصلاة أسبغت الوضوء، ثم أتيت الموضع الذي أريد

الصلاة فيه فالتعد حتى تجتمع جوارحي، ثم أقوم في الفصل، فأجعل
 النكبة بين ناحيتي، والصراط تحت قدمي، والجنة عن يميني، والنار عن
 شمالي، ومثلت الموت ورائي، وأطنتها آخر صلاتي، ثم أقوم بين الرجاء
 والخوف، وأكبر تكبيرا بتحقيق، وأقرأ قراءة بنزلة، وأركع ركوعا
 بتواضع، وأسجد سجودا بتخشع، ثم أجلس على السجدة، وأشهد على
 الرجاء، وأسلم بالسند، وأتبعها بالخلاص، ثم لا أدري أقبلت أم لا ٢٣.

- الصفة الخامسة : الاعتدال في النفقة

(أ) - النص : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان: 67).

(ب) - التحقيق اللغوي :

أنفقوا : أي الإنفاق غير الواجب كإتفاق المرأة على عائكة وأصحابه.
يُسرفوا : من الإسراف، وهو تجاوز الحد والإفراط في إتلاف المال. يُقتسروا : الإقتار هو عكس الإسراف: أي الشح والإمساك. قواما : العدل بين الطرفين. والقوام : مايقام به الشيء.

(ج) - البيان والتفسير :

القصد والاعتدال في كل شيء من السمات التي إمتاز به الإسلام في تشريع أحكامه وتوجيه إرشاداته. ولاغور في ذلك إذ هو دين الوسطية بين المادية اليهودية والرهانية النصرانية. وهو إذ يراعى ازدواجية التكوين البدني والنفسي في الإنسان، يوازن بين مطالب الجسد والروح، بحيث لا يظغى أحدهما على الآخر.

وكان الجاهلون يغالون في اللذات، ويسرفون في الملاهي. من النساء والخمر والميسر، ويعتبرون ذلك من مقومات الرجولة في الشجاعة والكرم، والشعر الجاهلي وبالأخص المعلقة خير دليل في ذلك، فهذا طرفة بن العبد يقول مفتخرا :

ولولا ثلاث هن من لذة الفنى ، وحقت لم أحفل متى قام عودي

فمنهن سقى العاذلات بشربة • كعبت متى ما تعل بالماء تريد
وتفسير يوم الدجن والدجن معجب • يبهكنة تحت الخباء المعمد
وكرى إذا نادى المضاف محنيا • كسيد الغضا بتهته المستوردة
وقال عنترة :

وإذا شربت فإنني مستهلك • مالي وعرضي واقر لم يكلّم
فكيف استطاع الإسلام إنقاذ هؤلاء الناس من الوحدة التي
كانوا فيها ؟؟

لقد حوّلهم من عباد الشيطان إلى عباد الرحمان وركز في
نفوسهم تلك الصفات الخلقية الكريمة، فأصبحوا منشغلين بالمهام
العظمى في نشر رسالة الله في الآفاق. ويوم يربط الإنسان نفسه
بعضائم الأمور فإنه يترفع حتما عن المهو والعبث ويعتدل في مطالبه
الحسدية بالقدر الذي يقيم أوده ويقوى به على أداء مهمته، كما
وصف رسول الله (عليه الصلاة والسلام) أصحابه يقول : «نحن قوم لا
نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا فلا نشبع».

والاعتدال في الإنفاق هو الصفة الخامسة لعباد الرحمان. وقد
اختلف المفسرون في تحديد المقصود من الإنفاق في الآية الكريمة، فهو
ما يكون في طاعة الله أو في معصيته حتى يتحدّد معنى الإسراف أو
الإقتار، أو هو الإنفاق من مال الغير، ومنع حقه، وقد أورد الإمامان
القرطبي والرازي كثيرا من أوجه التفسير لمعنى الإسراف والإقتار.
وأوضح الإمام ابن عاشور المقصود من الإنفاق في الآية من خلال
التعبير المستعمل فقال: «وأيّد بالإنفاق هنا الإنفاق غير الواجب وذلك

إنفاق المرء على أهل بيته وأصحابه لأن الإنفاق الواجب لا يذم الإسراف فيه. والإنفاق الحرام لا يحمده مطلقاً بل له أن يذم الإقتار فيه على أن في قوله: إذا أنفقوا إشعاراً بأنهم احتاروا أن ينفقوا ولم يكن واجباً عليهم» م: 19، ص: 71.

قلت: ويؤيده قوله تعالى مخاطباً رسوله في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَجْمَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ الآية: 29. وكما ورد في حديث الوصايا الشسع في قوله (عليه السلام): «أوصاني ربي بتسع أوصيكم بها أوصاني بالإخلاص في السر والعلانية، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في الرضى والغضب» (الحديث).

والقوام أو الاعتدال المطلوب يختلف تقديره باختلاف الأحوال المعيشية للناس، بصفة عامة، وباختلاف سعة الرزق وضيقة بين واحد وآخر. وفي ذلك يأتي هذا التوجيه الإلهي الحكيم: ﴿فَلْيَنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ، وَمَنْ قَدَّرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ، فَلْيَنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ، لَا يَكُلِفَ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا، سَيَجْعَلُ اللَّهُ بِهِ عَسْرَ يَسْرًا﴾ «الطلاق: 7».

قال ابن عباس: «من أنفق مائة ألف في حق فليس بسرف ومن أنفق درهما في غير حقه فهو سرف، ومن منع من حق عليه فقد قتر». ولا شك أن لشهوة البطن انعكاساً على سلوك الإنسان في حياته اليومية، ولتسع الحسد بصفة عامة أثر بالغ في الحياة الاجتماعية للأمم، لأن الشبع والري إلى حد الإسراف يؤدي إلى سعار الشهوة البهيمية، حتى تغفلت عن ضوابط العقل. وفي ذلك يقول المولى تبارك وتعالى

في سورة القتال : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَسْتَمْعُونَ رَبَّاهُمْ كَمَا تَأْكُلُ
الْأَنْعَامُ. وَالنَّارُ مَشْوَى لَهُ﴾ الآية: ٩٢.

ومع الإسراف والتبذير يصبح الشرف والبلدح هو الطابع المهيمن
على الحياة العامة. فتحتل بذلك موارد الاقتصاد، وتسوء الحالة
الإجتماعية حين يزداد الأغنياء غنى والعقراء فقرا.

وفي غياب العدالة الإجتماعية، وإلحاح البطون الجائعة يضطرب
الأمن وتسود الفوضى. وقد حذر الله تعالى عباده من هذا المصير
المشؤوم فقال في سورة الإسراء : ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نَهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا
مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ الآية: ١٦٦.
ومن جهة أخرى لا يريد الإسلام أن يركن أتباعه إلى التقشف
والتردد كما يدعو إليه المتصوفة قديما وحديثا.

بل لا حرج على المؤمن أن يستمتع بأطوار الحياة، وأن يأخذ
بزينتها في حدود الاعتدال، يقول تعالى : ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ
الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ «الأعراف: ٣٢»، ويقول تعالى
من سورة المائدة : ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ
فِي مَا طَعَمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا
ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسِنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْحَسَنِينَ﴾ الآية: ٩٣.

وتوحي الاعتدال المطلوب أيضا في الحياة الروحية. بحيث يأخذ
المؤمن بالرخيص التي تيسر عليه حيثما تكون المشقة في أداء، ولكن من
أركان العبادة والله يقول : ﴿مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾
ويقول : ﴿وَلَا تَقْلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ النساء: ٢٩.

وقد نهى الرسول أصحابه عن الوصال في الصوم. وقال لأولئك
 الذين تواطأوا على الزهد والرغبة عن النساء : «إني امرؤ أنام وأقوم،
 وأصوم وأفطر وأنزوج النساء. فمن رغب عن سنتي فليس مني».

ولعل أبلغ آية في التحريض على الفصد والإعتدال هي قوله تعالى
 في سورة الأعراف : ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ
 وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الآية: 31).

وروى الإمام البخاري: أن رسول الله ﷺ قال: «سدّدوا وقاربوا،
 واعبدوا وروحوا، وشيء من الدلجة والفصد الفصد تبلّغوا».

- والله أعلم -

- الصفة السادسة : التنزه عن الشرك

(أ) - النص : ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ
النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا،
يَضَاعِفُ لَهُ الْعَذَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مُهَانًا﴾ «الفرقان: 68/69».

(ب) - التحقيق اللغوي :

لا يدعون مع الله إلها آخر : أي لا يجعلون له أندادًا. الوفا : إتصال
الحسين إتصالًا غير شرعي بالسفاح. يلقى أثامًا : الأثام : العقاب
والجزاء على الإثم. وفي التفسير المنقول: أي أنه واد في جهنم، وقيل هو
جل. يضاعف : يثبّد عليه العذاب بقوة. مهانا : ذليلا خاسئا.

(ج) - البيان والتفسير :

بعد ذكر صفات التحلي لعباد الرحمن بحميد الخصال، من
التواضع والحلم والتهجد والخوف من عذاب الله نجي، صفات تخليهم
عن الموبقات الكبرى، من الشرك بالله، وقتل النفس بغير الحق، والزنا.
وقد لزها الله تعالى في قرن واحد بعد ذكر موصول واحد نظرا
لشاعتها وقبحها، وما تجنيه على المجتمعات البشرية من مفسد. ولكون
العرب في جاهليتهم كانوا يمارسون تلك المظالم كلها. وهم مع ذلك
قد يتحلّون ببعض الخصال المتقدمة من الحلم والتواضع والإعتدال.
فقد أشكل على بعض المفسرين مثل هذا الترتيب العكسي. لأن
التحلي قبل التحلي كما يقول الحكماء. ونقل الإمام القرطبي عن

مبيحة أبي العباس إجابة حسنة عن ذلك الإشكال فقال : «وإنما صح تشريف عباد الله باحتصاص الإضافة بعد أن تخلوا بتلك الصفات الحميدة، وتخلوا عن نقائص ذلك من الأوصاف الذميمة. فبدأ في صدر هذه الآيات بصفات التحلي تشريفا لهم، ثم أعقبها بصفات التحلي تبعدا لهم» (جامع الأحكام: م: 13: ص: 75) .

قلت : إن المشركين كانوا يقترفون تلك المعكرات وهم يعتقدون أنهم متدينون على ملة أبيهم إبراهيم، وهم في ذلك على آثار آبائهم مقتدون. بدليل قولهم في عبادة الأصنام : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبَنَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ (الزمر: 103). وقولهم : ﴿هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ (س: 178).

وفي هذا المعنى يحجب الإمام الرازي بقوله : «إن الموصوف بتلك الصفات السالفة قد يكون متمسكا بالشرك تدبنا، ومقدما على قتل المعودة تدبنا، وعلى الزنا تدبنا فين تعالى أن المرء لا يصر بتلك الخصال وحدها من عباد الرحمان حتى يضاف إلى ذلك كونه مجانباً لهذه الكبائر» (م: 24: ص: 110/111).

أ - أولى هذه الكبائر الشرك بالله :

تذكر هذه الموبقة عادة في القرآن الكريم بلفظ الشرك أو الكفر. غير أن التعبير في هذه الآية الكريمة جاء بنفي الدعاء لغير الله. والنكته في ذلك -والله أعلم- هو إكمال الصورة لحقيقة العبادة لله التي يمارسها عباد الرحمان في جوف الليل، وأنها عبادة خالصة لوجه الله

لا يشوبها رياء ولا سمعة، وهما من الشرك الحقي، ثم إن الدعاء منع
 العبادة كما يقول العلماء، فليس بالضرورة أن يكون العابد أمام صنم
 ليقل عنه: إنه كافر أو مشرك فقد يدعي مسلم الإيمان بالله، وقد
 يمارس عبادته على الصورة التي كلف بها، ولكنه في توجهاته القلبية
 أو حتى في بعض أذكاره يخطئه التوفيق، فيهوى به الشيطان في قرار
 محقق، حين يدعو آباءه وأمهاته قائما على أضربتهم، أو حين
 يستشفع بولي من الأولياء أو يتوسل به في كشف الضرر. وينتشر إليه
 بوعده إن استجاب الدعاء. وهذا هو المزلق الخطير في باب العقيدة.
 وعباد الرحمان يظهرون أنفسهم من تلك الشوائب. بالإخلاص التام لله
 تعالى في دعائهم وعبادتهم. وقد جاء رجل إلى رسول الله (عليه
 السلام) فقال له: «إني لأقف الموقف أريد وجه الله، وأريد أن يرى
 موطني، فلم يردّ عليه حتى نزل قوله تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء
 ربه، فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾ (الكهف: 110)،
 وفي ما رواه الإمام البخاري في نزول هذه الآية: أن عبد الله بن
 مسعود رضي الله عنه قال: «قلت يا رسول الله أي الدّسب أكبر؟ قال: أن
 تدعو لله أندادا وهو خالقك، قلت: ثم أي قال: أن تقتل ولدك حيقة أن
 يطعم منك، قلت: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك. فأنزل الله
 تعالى تصديقها: ﴿والذين لا يدعون مع الله إلها آخر﴾ إلى قوله:
 ﴿يلق أئاما﴾ فالشرك بالله نوعان الشرك الأكبر، والشرك الأصغر.

(أ) - الشرك الأكبر: هو أن تجعل لله ندا بعبادة أي خلق من

مخلوقاته في الأرض أو في السماء كيفما كان نوعه أو منزلته من الله، سواء كان ملكاً مقرباً أم نبياً مرسلًا. وقد تضافرت لصوص القرآن في حرمة ذلك وآته من أكبر الكبائر لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ (النساء: 48).

(ب) - الشوك الأصغر : ويسمى بالشوك الخفي. وله صور عديدة قد لا يتنبه إليها العابدون وأخطرها، طلب السمعة والرياء. روى الإمام أحمد أن رسول الله قال: «ياكم والشوك الأصغر قالوا يارسول الله: ما الشوك الأصغر؟ قال: الرياء». يقول الله تعالى يوم يجازي العباد بأعمالهم.

إذهبوا إلى الذين كنتم تراعونهم بأعمالكم في الدنيا فانظروا هل تجدون عنهم جزاء.

والرياء مخادعة لله تعالى وصف بها المنافقين، ثم توعدهم بالدرك الأسفل من النار فقال جل من قائل: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ. وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء: 142). ثم قال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ (الآية: 145 من نفس السورة).

وقد عرّف العلماء الإخلاص بقولهم : أن تكون مع الله بغير خلق، ومع خلق الله بغير نفس.

فما أكثر الصلوات التي وقع فيها الناس قديماً وحديثاً وما أكثر

الخرافات والأوهام التي تعلقوا بها، سيما في محاولتهم معرفة المجهول وكشف الغيوب. وكان الإسلام حرباً على صيانة جوهر العقيدة في قلب المسلم، والتي تبني على التوحيد الخالص لله تعالى، بأنه وحده عالم الغيب والشهادة ويده ملكوت كل شيء، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولم يدع رسول الإسلام معرفة الغيب بل أمره تعالى أن يقول لأتباعه: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ. وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبُ لَأَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ. إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: 188). فلا دجل ولا شعوذة في الإسلام، ولا توصل إلى غير الله. فلم يتخذ المسلمون كهاناً ولا رهباناً في مساجدهم ليكونوا وسطاء بينهم وبين الله. وهم بذلك يطبقون ما أمرهم الله به في قوله: ﴿وَأَنْ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (الحج: 178).

وحتى ما درج عليه الناس في باب التفاؤل والتشاؤم أو التطير ببعض الأشخاص أو الأشياء نجد للإسلام توجيهات قيمة تدرب المؤمن على الرضى بقضاء الله والتوكل عليه. فلا يسب الدهر إذا لحق به مكروه، ولا يلعن البهائم والأشياء إذا لم تطاوعه لما يريد، لأن العرب قد ألفوا الاعتبار لهذه العادات فخرجوا الطير لتمر بهم سعداً أو لحساً كما يعتقدون. ويسلمون بالأزلام عندما يهتمون بأمر عظيم، وينشاءمون بيلاد الأنثى، ثم يقدمون على وأدائها دون شفقة ولا رحمة. يقول تعالى في سورة النحل: ﴿وَإِذَا بَشَّرَ أَحَدَهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ. يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيَسْكَنُ

على هون أم يدمته في التراب، ألا ساء ما يحكمون ﴿ الآية 58/59. كل هذه العادات وأشباهها حاربتها الإسلام وقضت عليها، بتركيز العقيدة الصحيحة في قلوب المؤمنين، وتغويض الأمر إلى الله مدبر الأمور ومقتدر الأسباب وعلام الغيوب.

يقول رسول الإسلام: «ثلاثة لا ينجو منها أحد: الظن، والبطالة والحسد. ثم يقول في التحريم منها: إذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيشرت فلا ترجع، وإذا حسدت فلا تبغ». - والله أعلم -

- الصفة السابعة : التزه عن قتل النفس بغير الحق.

(أ) - النص : ﴿لَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

(ب) - نصوص تحرم القتل :

يقول المولى تبارك وتعالى :

(1) - ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ. وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، ذَلِكَ وَمَا كُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الأنعام: 151).

(2) - ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ أَوْلَادَكُمْ فَكُنْتُمْ أَصْغَارًا، وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ الَّتِي كَانَتْ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلَاهُ سُلْطَانًا، فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ، إِنَّهُ كَانَ مُتَوَصِّرًا﴾ (الإسراء: 31-33).

(3) - ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (النساء: 93).

(4) - ﴿مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا، وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة: 31).

(5) - ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ (التكوير: 8-9).

(ج) - البيان والتفسير : - تمهيد -

القتل هو أول اعتداء من الإنسان على أخيه الإنسان بدافع العيرة والحسد، فقد قصَّ الله علينا أحداث هذه الجريمة الأولى التي وقعت بين إني آدم في سورة المائدة.

وصور الله فيها كيف كانت الحالة النفسية لكل من القاتل والمقتول، وذلك من خلال الحوار الذي جرى بينهما قبل تنفيذ العملية، وكيف استولى الدم على نفس القاتل وهو يوارى سواة أخيه. مما يدل بأن جريمة القتل مستفظة كريمة من أول حدوثها بين الأخوين، وهما يكونان مع والديهما الخلية الأولى في الجسم البشري كله، وربط الله تعالى بهذه الحادثة الشعاء قوله تعالى: ﴿مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ (آل عمران: ١٦٩)، ليبين حكمه الشديد في مثل هذه الجريمة في تشريع التوراة، وما من شك في أن الشرائع كلها السعادية منها والوسعية. لم تقف موقفا سلبيا من هذه الجريمة، بل عرفت ألوانا من التشريع الجنائي يتفاوت بين اللين والقسوة، وبين القوة والضعف، تبعاً لتصوراتها وإيديولوجياتها.

جاء الإسلام ونبت حضارته في المجتمع العربي. وهو مجتمع تغلب عليه ثورة العاطفة، واعتمد في شطر من كسبه على اللغارات، فكثرت، فيه العداوات، وما تدعو إليه من الأخذ بالثارات، بل حتى العاطفة الأبوية الرحيمة لم ترق عندهم إلى ذلك المستوى من الحنان العاطفي والرحمة الفطرية في النصحية من أجل الولد. فقهروا المرأة وأودوا البنات واستضعفوا الولدان. وإذا انتصروا لظلمهم فلا يكفون

بالمثل، بل يستقيمون أصعافاً مضاعفة.

وأمام هذا الوضع المتردي، فهل يلام الإسلام في تشريعاته الجنائية عندما شرع القصاص في جريمة القتل؟

كلا، بل منلك في ذلك طريقاً وسطاً بين الإفراط والتعريط، بما يتلاءم مع الطبيعة البشرية، وهو يشرع لها من الأحكام والقوانين ما يحقق لها الاستقرار والسلام. والنصوص التي بين أيدينا، سواء منها ما جاء بالنهي الصريح، أو بالإخبار كما في آية الفرقان، كلها تنص على حرمة النفس البشرية منذ أن خلقها الله كما نص الحديث: «الآدمي بينك الرب، فملعون من هدم بينك الرب» وصيغة النهي الصريح لقتل النفس جاءت في سورتي الأنعام والإسراء على هذا التعبير: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ وقد جال الإمام محمود مثلثات (رمه الله) جولة صادقة في فلك الثلاث المذكور لأجزاء الجملة وتوضيح معناه فقال بعد أن فسر قوله تعالى: ﴿الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ على وجهين: التحريم التشريعي الذي نزلت به الشرائع السابقة، والتحريم بمقتضى العصمة الطبيعية في كونه كائناً عاقلاً عاملاً في الحياة وخلقاً لله في الأرض قال بعد ذلك: «وهذا التفسير في معنى التحريم المذكورة يرشد إرشاداً واضحاً إلى أساس ما يقره العلماء من أن الحرمة هي الأصل في النفوس لا تباح إلا بحق طارئ على ذاتها قد اقتضاه إصغابها وهواها وأنها في ذلك بخلاف الأموال فإن الأصل فيها هو الإباحة... الخ» (أخر كتاب الإسلام عقيدة وشرعة ص 385 159).

قلت: والحق الطارئ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ قد بينه

نصوص القرآن ونصوص السنة، وإجماع العلماء.

فمن القرآن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ «الإسراء: 33».

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ: الْحَرُّ بِالْحَرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى. فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ، ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ، فَمَنْ اعْتَدَى بِكُمْ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ «البقرة: 178».

وأما السنة فكقولُه (عليه الصلوة والسلام): «لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِأَحَدٍ ثَلَاثَ: كُفْرٍ بَعْدَ إِيمَانٍ، وَزَنًا بَعْدَ إِحْسَانٍ، وَقَتْلِ نَفْسٍ بغيرِ حَقٍّ»، وكل من الأسباب الثلاثة علة معقولة. ففي قتل المرتد إلى الكفر، دفع للفساد الروحي في الجماعة بخروج من كان يعيش ضمنها ويعرف أسرارها.

وفي قتل الزاني المحصن بالرجم، دفع للفساد الاجتماعي بالإعتداء على الأعراض ونشر الفاحشة في الدين آمنوا.

وفي القصاص من القاتل عمدا حياة كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ «البقرة: 179»، وذلك بردع المجرم لأنه عضو مريض يجب أن يستأصل من جسم المجتمع ضمانة لأمنه وعافيته، ثم في القصاص تطمين لأصحاب الدم أن تنور نفوسهم فينتقمون بأيديهم. ومن أحكم وسائل العلاج في التشريع الإسلامي أنه وكل تنفيذ الحدود إلى إمام المسلمين، حسما للفوضى والانتقامات الشخصية فقال رسول الله ﷺ: «أربعة أمور لا تكون إلا للولاء: الفيء

والحدود والصدقات والجمعات. ووقت أسباب أخرى إتفق العلماء على إباحة القتل بها، وأسباب اختلفوا فيها تطلب من المطولات الفقهية. ذلك هو العقاب الديني للمجرم القاتل، وهو جزاء عادل لهذه الجريمة المشنعة، وإن رأى بعض المسلمين المستغربين أن في حكم الإعدام قساوة وغلظة لا تليق بالمجتمعات المتقدمة التي عرفت حقوق الإنسان، ونعمت بمنظمة الأمم المتحدة ومجلس الأمن. فالله القوي قاهر فوق عباده هو الذي شرع هذه الأحكام وهو أعلم بمن خلق، وهو أرحم بعباده حين قال: ﴿ولكم في القصص حياة﴾.

أما الجزاء الأخروي فقد قال تعالى في سورة النساء: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذاباً عظيماً﴾ الآية: 93.

وقوله تعالى بعد ذكر جريمة الزنا من هذه الآية الكريمة: ﴿ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً، فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً﴾.

وقد لزم الله تعالى هذه الكيالات الثلاث في قرن واحد وعطف بعضها على بعض باسم موصول واحد. مما يدل على أنها في منزلة واحدة من القبح والظلم والشاعة. ويرتب على مرتكبيها القتل، وأقصى الجلد لمن كان غير محصن في الزنا وفي قبول التوبة منها سيما في القتل العمد للمؤمن خلاف بين العلماء كما سيأتي بيانه.

- والله أعلم -

- الصفة الثامنة : التنزه عن الزنا

أ) - النص : ﴿ولا يزنون، ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا﴾ (الفرقان: 68-69).

ب) - نصوص أخرى في فاحشة الزنا :

قال تعالى :

(1) - ﴿ولا تقرّبوا الزنا، إنه كان فاحشة وساء سبيلا﴾ (الإسراء: 34).

(2) - ﴿واللاتمي يأتين الفاحشة من نسائكم، فاستشهدوا عليهن أربعة منكم، فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا. واللذان يأتيانها منكم فآذوهما، فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهم، إن الله كان توابا رحيمًا﴾ (النساء: 15-16).

(3) - ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين. الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك، وحرم ذلك على المؤمنين﴾ (النور: 02-03).

ج) - البيان والتفسير :

بناء على تقسيم الإمام القرطبي، فإن تنزه عباد الرحمن عن ارتكاب فاحشة الزنا هي الصفة الثامنة، وهي من صفات التحلي مقرونة

بموبة الشوك بالله وجريمة القتل، والعرب في جاهليتهم أكثر ممارسة لهذه الفاحشة، سيما بفتياتهم من الإماء اللاتي يملكونها ويتخذون منهن بغايا في دور خاصة بهن تعلوها أعلام حمراء اجتذبا للمرابين، وتحصيلا على الأموال، ولم يكن غير العرب في الحضارات الأخرى بمنأى عن هذا المرض الاجتماعي الويل. فهؤلاء الرومان والفرس في عهد التنزيل تفشت فيهم هذه الفاحشة وروجوها بمختلف الوسائل.

والإسلام - هو دين الطهر والنقاء - قد حارب هذه الظاهرة بخطته الحكيمة في التشريع، وضيّق خناقها بمختلف الوسائل الوقائية، في تلبية الرغبة الجنسية بالطرق الشرعية أولا، ثم شرع من الحدود الصارمة ما يقطع دابرها إن طبقها حاكم المسلمين ثانيا.

والنص الصريح في تحريم فاحشة الزنا هو قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانَا، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سِيْلًا﴾ كما ورد بصيغة التعميم في سورة الأنعام بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾. وفي الآية الكريمة من سورة الفرقان يوصف الإخبار: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ وكذا في سورتي المؤمنون والماعرج: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِغُرُوحِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾. والزنا هو الإتصال غير الشرعي بين رجل وامرأة. ولا يتم ذلك الإتصال عادة إلا بعد مقدمات في إثارة الرغبة الجنسية تتحطم معها الحاجز الاجتماعية، سيما عند ضعف الولزع الديني. وتوفر وسائل الفتنة والإغراء. يقول أمير الشعراء شوقي:

نظرة فابتسامه فسلام • فكلام فموعد فلقاء

ولذلك جاء النص الصريح في النهي بالتحذير من مغالبة الزنا ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانَا﴾ وبذلك يقطع الطريق على كل الأسباب الموصلة إليه. من الفتنة والإغراء بالتبرج وإظهار الزينة، واختلاط الرجال بالنساء أو الإختلاء بهن، وفي الجانب الإيجابي يحرم الإسلام الشباب على التزوّج، ويدعو للتخفيف من مؤونته، ويضفي اليمن والبركة على المرأة إذا رخص مهرها وطابت عشرتها وصلح دينها. ويدعو إلى مساعدة المملوكين على المكاتبه حين يستغنون الحرية والإحصان. ويحرم قذف المؤمنات والمؤمنين على غصّ الأبصار وحفظ الفروج. ويحرم قذف المحصنات. وكل ذلك هي وسائل وقائية لتطهير المجتمع المسلم من هذا الداء العضال. ثم يهدّد بعد ذلك كل أولئك الذين يروجون للفاحشة بأي وسيلة كانت، يهدّدهم بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة فيقول تعالى في سورة النور: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَحْتَبُونَ أَنْ تَنْشِعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ الآية: ٢٩.

ونجد في كلتا الآيتين من سورة الإسراء والفرقان أن جريمتي القتل والزنا ذكرتا في نسق واحد سواء في معرض النهي أو التفي وذلك لما بين الجريمتين من الآثار الوخيمة على المجتمعات البشرية في إهدار حق الدماء والأعراض، فبينهما صلة ومناسبة قوية أوضحها السيد القطب (رحمه الله) في ظلاله ببيان مشاف نوره بنصّه فيما يلي :

«وبين قتل الأولاد والزنا صلة ومناسبة - وقد توسط النهي عن الزنا بين النهي عن قتل الأولاد والنهي عن قتل النفس -

لذات الصلة وذات المناسبة.

إن في الزنا قتلا من نواحي شتى، إنه قتل ابتداء لأنه إراقة لمادة الحياة في غير موضعها، يتبعه غالبا الرغبة في التخلص من آثاره بقتل الجنين قبل أن يتخلق أو بعد أن يتخلق، أي قبل مولده أو بعد مولده. فإن ترك الجنين للحياة ترك في الغالب حياة شريفة، أو حياة مهينة. وهي حياة مضبوطة في المجتمع على نحو من الأنحاء... وهو قتل في صورة أخرى، قتل للجماعة التي يفسد فيها. فتضيع الأنساب وتختلط الدماء، وتذهب الثقة في العرض والولد، وتحلل الجماعة وتنفك روابطها. فتنتهي إلى ما يشبه الموت بين الجماعات.

وهو قتل للجماعة من ناحية أخرى، إذ أن سهولة قضاء الشهوة عن طريقه يجعل الحياة الزوجية نافذة لا ضرورة لها. ويجعل المرأة تبعة لا داعي لها، والأسرة هي الخطن الصالح للفراخ الناشئة، لا تصح فطرتها ولا تسلم تربيتها إلا فيه» (م ج: 15 ص: 321).

قلت: إن الله العليّ القدير قد جعل من دلائل قدرته وبديع صنعته تلك المادة العجيبة في المني كيف تخرج من الصلب والثرائب بلذة فائقة تدفع الإنسان دفعا قويا إلى طلبها لدى الجنس الآخر، وجعلها وسيلة للإنجاب واستمرار النسل البشري فقال جلّ من قائل في سورة الواقعة: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْنُونَ، أَلَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ؟﴾ نحن قدرنا بينكم الموت، وما نحن بمسبوقين على أن نبذل أمثالكم وننشكم في ما لا تعلمون. ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ﴿ (الآيات: 58-62).

ووضع هذه المادة في غير موضعها من أعظم الكبائر عند الله، قال رسول الله (عليه السلام) : «ممن ذنب بعد الشرك بالله أعظم عند الله من نطفة وضعها رجل في فرج لا يحل له» (رواه أحمد والطبراني). وهذا الذنب متفاوت الحجم تبعاً لنوع الجريمة وطبيعتها. فكلما كانت مع أقرب الناس نسباً أو جواراً كانت أحيث فحشاً وأعظم ذنباً. وفي الحديث المتقدم عن عبد الله بن مسعود في إجابته عن أي ذنب أعظم؟؟ قال له في السؤال الثالث: أن تزني بحليلة جارك. ثم إن الله تعالى قد حدّد الإطار الشرعي لذوات المحارم اللائي يحرم على الرجل نكاحهن في قوله تعالى من سورة النساء: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبنَاتُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأَحَلَّ لَكُمْ مَا وراءَ ذَلِكَمَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ﴾. والآيات (23-24).

ونظراً لقطاعة هذه الفاحشة وما يتجرّ عنها من الآثار الوخيمة في الحياة الفردية والاجتماعية، فإن العقاب عليها يكون دينا وأخرى أو بالأحرى ماديا ومعنويا، وقد جمع الله بينهما في قوله بسورة النور: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. والآية (19). وهذا رسول الله يتنقى الإيمان عن مرتكب هذه الفاحشة حين يرتكبها فيقول: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» (الحديث - رواه الشيخان). وهبك أن الزاني أو الزانية يستحقان بحرمتهما بحيث لا تثبت عليهما الإدانة ثبوتا شرعيا بإقرار أو شهادة الشهود فينفلتان من الحدّ الصارم. فكيف يلقي هؤلاء الزناة جزاءهم الدنيوي المتوعد به في الآية

الكرمية ٣٣- فلنستمع إلى رسول الله يحيب على ذلك بقوله: «يامعشر المسلمين اتقوا الزنا فإن فيه ستّ عصال، ثلاث في الدنيا وثلاث في الآخرة فأما التي في الدنيا فذهاب ماء الوجه، وقصر العمر، ودوام الفقر. وأما التي في الآخرة، فسخط الله تبارك وتعالى وسوء الحساب والعذاب بالنار» (رواه البيهقي وابن الجوزي).

قلت: إن لهذا الحديث ما يسنده في روايات أخرى، ثبت وتبين ما ورد في آية النور من أن عقاب الزناة لا يقتصر على عذاب الآخرة: فقصر العمر مثلاً تدلّ عليه الإحصائيات قديماً وحديثاً في المصابين بالأمراض الفتاكة التي تؤدي بحياة الذين يمارسون هذه الفاحشة، كمرض الزهري، والسلان القبيح، وكمرض السيدا حديثاً. وأما التعرض للفقر فقد ورد فيه حديث: «بشر الزاني بالفقر ولو بعد حين. فكم من غني أصبح مملاً بعد أن استنفد جلّ ماله في تحقيق رغبات المومسات ولا ينطفئ سعاده لمزيد من الشهوة البهيمية، وهو لا يكاد يحسّ بلذة في قضائها حلالاً عند زوجه.

وأما ذهاب ماء الوجه فهو أدهى وأمرّ عندما ينتهي الزاني إلى فقدان كل قيمة دينية أو اجتماعية، وبالتالي لا يغار على شرف أسرته، حين تعامله بالمثل فلا تصون له عرضاً ولا شرفاً، بل يرضى بالدينونة في فراشه فيرحب بالأخذان ويستقبلهم يرضى واطمئنان ويغدو ديوثاً مهيناً. وتلك هي العقوبة الدنيوية القاسية التي هي الجزاء الوفاق للزناة وقد جاء في الحديث: «من زنا زني به ولو في كسر يثمه. وقانا الله شر هذا الوباء. وجنبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن. - والله أعلم -

فواحش أخرى حاربيها الإسلام

(أ) - النصوص :

- (1) - ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ «الأعراف: 151».
- (2) - ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ «الأعراف: 33».
- (3) - ﴿أَتَأْتُونَ الذِّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ، وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجَكُمْ﴾ «الشعراء: 165-166».
- (4) - ﴿وَلَوْلَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ: إِنَّكُمْ لَأَتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ، أَيْنَكُمْ لَأَتُونَ الرِّجَالَ، وَتَقَطْعُونَ السَّيْلَ، وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَرَ﴾ «المعكوت: 28-29».
- (5) - ﴿وَلَوْلَا إِتْيَانُهُ حُكْمًا وَعِلْمًا، وَتَحْيَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَالَثَ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سُوءٍ فَاسِقِينَ، وَأَدْخَلَاهُ فِي رَحْمَتِي إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ «المؤمنون: 74-75».

(ب) - التحقيق اللغوي :

الفواحش: جمع فاحشة. هي كل فعلة شديدة القبح مثل الزنا واللواط والمحاق والحياث: هذه الطيبات، والحينة هي بمعنى الفاحشة من الدناءة والقبح يذرون: يتركون، أتون الذكور: من الإتيان أي المجيء يقال: جئت البلد وأتيته، واستعمل في العملية الجنسية ويكون مفعوله حدثا كقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَأَتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ ويكون شفعيا كقوله: أتاتون الذكرا: جمع ذكر وهو يتناول الصغير والكبير. النادي: حيث يجتمع الناس لتجديد أو التهو.

(ج) - البيان والتفسير:

لا يقتصر الجاهليون في كل زمان ومكان في إرضاء شهواتهم البهيمية على أسلوب واحد حين يحطمون الحواجز الأخلاقية في المجتمعات، ولا يلتزمون بالصواب الفطرية السليمة، فلا عجب أن يتدع السفهاء من قوم لوط تلك الفعلة الشنيعة بإتيان الذكور والإعراض عن ما خلقه الله من مكان الحرث الطبيعي في النساء. وحين يشد الإنسان عن فطرته السليمة فإنه يتخطى حتى الطبيعة الحيوانية في إشباع غريزته الجنسية، والله تعالى - وهو أعلم بمن خلق - يذكر هذا الصنف من الناس في معرض التعجب والاستنكار في سورة الفرقان فيقول جل من قائل: ﴿أَرَأَيْتَ من اتخذ إليه هواه أفانئ تكون عليه وكيلا، أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون؟ إن هم إلا كالأنعام، بل هم أضل سبيلا﴾ الآية: 43-44. أجل، إنه الشأني للهوى والشهوات في المجتمعات الجاهلية التي يقول عنها السيد قطب (رحمه الله) : «السمعة الأولى للجاهلية - في كل زمان - كما نرى في جاهليتنا الحاضرة التي تعم وجه الأرض هي الفوضى الجنسية والإطلاق البهيمي بلا ضابط من خلق أو قانون، واعتبار هذه الاتصالات الجنسية الفوضوية مظهرا من مظاهر «الحرية الشخصية»، لا ينف في وجهها إلا متعنت، ولا يخرج عنها إلا مترمت؟ - ولقد يتسامح الجاهليون في حرياتهم - الإنسانية كلها ولا يتسامحون في حريتهم «البهيمية» هذه وقد يتنازلون عن حرياتهم تلك كلها، ولكنهم يهتدون في وجه من يريد أن ينظم لهم حريتهم البهيمية، ويظهرها» (ظلال القرآن ج الرابع، ص: 279).

قلت: من فضل الله ورحمته على البشرية كلها أن جاء الإسلام ليظهر هذه الأرجاس، ويتصدى لمحاربة تلك الفواحش مظهر منها وماطن، يحاربها لا بمجرد التذكير والإرشاد، ولا بعاطفة التقى والخشية لرب العباد، بل واجه تحذيرات الغاوين السفهاء بالزجر والتأديب على قدر حجم الفاحشة ونوع ممارستها، وبذلك صان المجتمع وحافظ على كيان الأمة، لأنه لا يكون صلاح أحدهما إلا بصلاح الآخر.

والنصوص التي ين أدينا، منها ما ينهي عن ارتكاب الفواحش مظهر منها وماطن بصفة عامة ومنها ما يركز على نوع منها بأسلوب القصة عن تاريخ أم خالية كانت تمارس أنواعا من تلك الفواحش التي كانت سببا في غضب الله عليها واستئصالها من الوجود بعد إقامة الحججة عليها بالوحي السماوي على لسان رسول من رسل الله، وأشدّها محققا واستئصالا قرى قوم لوط كما خبر عنهم القرآن في كثير من السور منها قوله تعالى في سورة هود: ﴿فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك، وماهي من الظالمين بعيد﴾ والآيات: 82-83. وقد ذكر القرآن تلك الفاحشة التي يرتكبوها، وهي إتيانهم الذكوان من العالمين، وقد درج الفقهاء على تسميتها «باللواط»، غير أن آية سورة الأنبياء في قوله تعالى: ﴿ونحنياه من القرية التي لا تعمل الحيات﴾، وقوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿أننكم لتأتون الرجال وتقطعون السيل، وتأتون في ناديككم المنكر﴾ نشران بأن هؤلاء القوم كانوا يمارسون ضروبا من الحيات الأخرى في نواديهم، فقد روي عن ابن عباس (رضي الله عنه)

أنه قال: وعشر حصال من أعمال قوم لوط: تصفيف الشعر، وحلّ الإزار، ورمي البندق، والحذف بالخصي، واللعب بالحمام الطيارة، والصغير بالأصابع، وفرقة الأكمب، وإسبال الأزار، وحلّ أزر الأقية، وإدمان شرب الخمر، وإتيان الذكور، واستريد عليها هذه الأمة مساحقة النساء النساء. قلت: إن هذه الحباث التي ذكرها ابن عباس تعني في حملتها التخلّث والميوعة في اللباس والحركات، وهي من الأعمال التي يقوم بها عادة هؤلاء المتخسّثون، وهم يعرضون أنفسهم في النوادي والساحات كما تفعله المومسات تصيدا للزبائن والشذاذ، أما فاحشة مساحقة النساء النساء، والتي قال ابن عباس أن الأمة الإسلامية سبتلى بها، فهي أيضا من الفواحش الدنيئة التي لا تقلّ حشا وقحشا عن الزنا، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «أربعة يصبحون في غضب الله ويمسون في سخطه، قيل من هم يا رسول الله قال: المشبهون من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال، والذي يأتي البهيمة والذي يأتي الذكر».

ولم يرد نص صريح في القرآن لعقوبة هؤلاء إلا ما نأخذه من العبرة و الإنعاط بمصير قوم لوط. أو في التفسير الذي ذهب إليه أبو مسلم الأصفهاني كما نقله الإمام الرازي. أنه كان يرى - خلافا للجمهور - أن قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَاللّٰهُ يَأْتِي الْفَاحِشَةَ مِنْ نَسَائِكُمْ﴾ يرى أنها خاصة بجريمة العرائس إحداهما مع الأخرى - أي السحاق - وعقوبتهما كما جاء في الآية: الحبس إلى الموت. وأن الآية الثانية هي قوله تعالى: ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيَا مِنْكُمْ﴾

فَأَذِرْهُمَا خاصة بجريمة الرجال أحدهما مع الآخر (اللواط) وعقوبتهما الإيذاء بالقول والفعل.

قلت: ويلتحق بالفاحشين السابقين إثبات المرأة في ذنبها أو في حالة الحيض. وقد ثبت روايات عن رسول الله زيادة على ما ورد في القرآن من النهي عن الوطء في الحيض. ومنها ما رواه أحمد وأبو داود عن أبي هريرة عن رسول الله (عليه السلام) أنه قال: «مذموم من أتى حائضا أو امرأة في دبرها» وقد علل الله إثبات المرأة في الحيض بأنه أذى وأكد النهي بالتركيز على ظهورها وتغطرها بحصول محبة للتواضع والمظهرين. ثم أمر بإثبات المرأة من مكان الحرث، وهو المكان الطبيعي للإحجاب. لأن المذموم مكان للفرث لا يلائم مع القطرة السليمة. ولذا جاء النهي على ذلك يقول الله تعالى: ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثُ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ «البقرة: 223». وقد فسر الجمهور قوله تعالى: ﴿أَنَّى شِئْتُمْ﴾ بمعنى «كيف شِئْتُمْ» مستقبلين أو مستديرين. ولكن في مكان الحرث على أية وضعية، واختلاف العلماء على عقوبة اللواط بين القتل والحرق والنفي ويرجع الأمر في ذلك لحاكم المسلمين يختار لكل حالة ما يناسبها قطعا لما في هذه الفاحشة الشاذة عن القطرة السليمة. ومن عجيب أمر الحضارات الفاجرة اليوم أنها تدغم ارتكاب هذه الفاحشة بين قوانين تجيز ممارستها إلى حد القربان بين الرجلين إذا ارتضيا ذلك بدعوى الحرية الشخصية. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُ سَوَاءَ عَمَلِهِ فَرَأَاهُ حَسَنًا، فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ. فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ «فاطر: 04».

التوبة

(أ) - النص : ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْرَأُ اللَّهُ سَبَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا. وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا. وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ، وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ الفرقان: 70-71-72.

(ب) - التحقيق اللغوي :

تاب، وتاب: من التوبة. وهي بمعنى الرجوع إلى الله بالإقلاع عن الذنوب مع الندم والعزم على عدم الرجوع إلى الذنب: وهي ثلاث عناصر لتحقيق التوبة النصوح: **يُتَدَلَّ**: مصدر تدللا: جعل الشيء بدلا عن شيء آخر. يقول تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾. **يَشْهَدُونَ**: وشهد: يكون بمعنى حضر ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾، ويكون بمعنى أخبر عن شيء شهده: فاستشهدوا شهيدين من رجالكم. **الزُّور**: كل ما هو باطل من قول أو عمل. **وَيَسْتَعْمَلُ** غالبا للكذب. **اللَّغْوُ**: العبث والمفاضة مما لا قيمة له من قول أو عمل. **مَرُّوا كِرَامًا**: أي غير مشاركين فيه حفاظا على كرامة نفوسهم.

(ج) - البيان والتفسير :

بعد ذكر العذاب المضاعف لمرتكبي الجرائم الثلاث: الشرك والقتل والزنا، سواء من ارتكبها جملة أو ارتكب إحداها، فتح الله باب التوبة تمسحا مع أسلوب القرآن الحكيم في الترغيب والترهيب والوعد والوعيد، فكان هذا إمتثناء من العموم السابق الذي دلت

عليه «من» الشرطية في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾
وقيل في سبب نزول هذه الآية ما رواه الإمام مسلم عن ابن عباس:
«أن ثامنا من أهل الشرك، قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، فأثاموا محمدا
ﷺ فقالوا: إن الذي نقول وتدعو لحسن لو تخبرنا أن لما عمنا كفارة
فنزلت ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾».

قلت: وفي معنى هذا الحديث تنزل قوله تعالى في سورة الزمر:
﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ
إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذَّنْبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ
وَأَسْلُمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ، وَاتَّبِعُوا
أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْةً
وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ والآيات: 53-55.

وبستل من الحديث الذي رواه ابن عباس: أن المقصود من
التوبة الأولى هي لأولئك الذين طرَحُوا إشكالية ماضيهم في الكفر
وضلالته لرسول الله، وهم مشفقون على أنفسهم بما ارتكبوه من تلك
الموبقات، فكانت كل من آتني القرقران والزمر بمنابة البشرية لهؤلاء بأن
الله تعالى لا يؤاخذ ولا يعذب قبل أن يقيم الحجة على عباده يرسله
وكتبه ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ «الإسراء: 15».

والإسلام حيث لما قبله كما قال رسول الله: ولعل في تقديم
التوبة على ذكر الإيمان والعمل الصالح ما يؤكد هذا المعنى: لأن التوبة
من الكفر وأرجامه إنما تعني الدخول في الإسلام وهو يقتضي الإيمان
الصحيح والعمل الصالح. وإشكالية ابن عباس في رفض توبة القاتل

عمداً كما تقدم إنما تطرح مع القاتل المسلم، أما القاتل المشرك فإن إسلامه يجب ما قبله اتفاقاً.

ويفتزع على هذه التوبة قوله تعالى: ﴿فَأُولَئِكَ يَسْئَلُ اللَّهُ سِيئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾.

اختلف المفسرون في بيان المراد من تبديل السيئات بالحسنات على وجوه ذكرها كل من الإمامين الرازي والقرطبي. وقد أجاد الشيخ المراغي (رحمه الله) تلخيص تلك الأوجه بقوله: ولكن من رجع عن هذه الآثام مع إيمانه وعمله الصالحات، فأُولَئِكَ يحسب الله سيئات معاصيه بالتوبة ويثبت له لواحق طاعته (ج: 19 - من: 40).

قلت: إن هذا التفسير مطابق لما ذهب إليه الزجاج إذ قال: ليس يجعل مكان السيئة الحسنة، ولكن يجعل مكان السيئة التوبة، والحسنة مع التوبة، ويؤيد هذا المعنى حديث معاذ أن رسول الله قال: «إتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وحائق الناس بخلق حسن». ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾.

وللمفسرين أقوال - أيضاً - في بيان تكرير التوبة، منها القوي والضعيف تلخصها في ما يلي :

أ - يرى ابن عباس أنها للتفرقة بين أصناف المشركين الذين أسلموا؛ فالآية الأولى جاءت في حق الذين أسلموا وقد قتلوا ووزلوا في جاهليتهم، والثانية في حق الذين أسلموا ولم يَكُونُوا قد فعلوا ذلك في جاهليتهم. فهؤلاء مفضلون عند الله على الصنف الأول.

ب - قال القفال: يحتمل أن تكون الآية الأولى قيعن تاب من المشركين والثانية لمن تاب من المسلمين.

ج - ويحتمل أن المقصود من الآية الثانية بيان التوبة النصوح وأنها هي المعثرة والمقبولة عند الله. وذلك بدلالة التأكيد بالمفعول المطلق، ومعنى التجدد والاستمرار باستعمال الفعل المضارع «يتوب» وقوله «إلى الله» أي الرجوع الحقيقي إلى حكم الله وتوبه.

وللمشيخ المراغي توجيه آخر حسن إذ يقول بعد تأكيده على معنى التوبة النصوح في الآية الثانية. يقول: «وفي هذا تعميم لقبول التوبة مع جميع المعاصي بعد ذكر قبولها من أمهاتها» (نفس المصدر ص: 40). والله أعلم

جعلنا الله من الصالحين الثائمين.

التوبة النصوح وأصناف الناس أزاءها

(أ) - النصوح :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ، وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ «النسرة: ٥٨».

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ، فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا، وَلَيْسَ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُم الْمَوْتُ قَالَ: إِنِّي تُبْتُ الْآنَ، وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ، أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ «النساء: ١٧- ١٨».

﴿وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ «النور: ٣١».

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا. فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ، ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ «فاطر: ٣٢».

(ب) - التحقيق الغوي :

التوبة: في المعنى اللغوي هي في معنى الرجوع والعودة وفي المصطلح الديني هي الرجوع إلى الله بالإنشزام بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه. نصوحا: مأخوذة من «النصح» أي الخلاص من الشوائب وفي الغش. يعملون السوء بجهالة: أي يقتربون الآثام عن علم الشهوة والتباع الشهوى.

اصطفينا: أي اخترنا وفضلنا. مقصد: يشار بالوسطية والإعتدال.

ج) - البيان والتفسير :

وُصف القرآن الكريم لفظ «التوبة» في صيغه المختلفة: مصادر وأفعالا وصيغا للمبالغة أو صفات مشبهة، ونهايك بتسمية سورة «التوبة» وما ورد فيها من الأحكام الصارمة لمواجهة النفاق وكشف مكاييد المنافقين .

والتوبة هي الإنابة إلى الله بترك الذنوب والتقدم على ما فرط منها مع العزم على عدم العودة إليها في المستقبل.

وفي سورة التحريم جاء الأمر بها من الله للذين آمنوا وكذا في سورة النور مؤكدا بـ «جميعا» بصيغة الجمع في كلتا الآيتين، إثباتا للمسؤولية التضامنية في المجتمع المسلم للتخلي بهذا الخلق الكريم، الذي لا يمكن أن يستغنى عنه أي عبد مؤمن مهما زكا فعله وحسن طاعته. لأن الإنسان تتجاذبه نوازع الخير والشر منذ بدء خلقه. فقد عصى آدم ربه فعوى، ثم احتياه ربه فتاب عليه وهدى. وحتى الأنبياء والرسل (عليهم السلام) لا يستغنون عن طلب المغفرة من الله: والله أمرهم بالاستغفار لذنوبهم، وهم الأخيار المعصومون. قال تعالى لرسوله: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم﴾ «الأنفال: ٢٩». وجاء الأمر بالتوبة في سورة التحريم مقيدا بصفة «نصوحا» مما يدل على أن التوبة أنواع تختلف باختلاف حال التائب. وبالتالي منها المقبول والمرفوض عند الله.

وقد اجتهد العلماء في تحديد شروط التوبة المصوح المقبولة عند الله. ففصلوا شروطها، وصنفوا المخالفات الشرعية إلى ما هو حق لله وحق للعباد، وحق العبد منه إلى ما هو مادي أو معنوي.

يقول الدكتور الشرباصي في موسوعته لأخلاق القرآن: «وقد أوجز الأصقهاني لشروط التي يلزم توافرها في صحة التوبة. فذكر أنها ترك الذنب لقبحه، والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة» (ج: 2 ص: 58).

قند : إن الشرط الرابع في تدارك الأعمال يجب أن يفرق فيه بين ما هو حق للخالق المعبود، وما هو حقوق للمخلوقين.

أ) - حق الله يتدارك بالقضاء لما فات قدر المستطاع وبأداء الكفارات المترتبة على بعض المخالفات الشرعية كهتك حرمة رمضان وكفارة قتل الخطأ والظهار وكفارات اليمين... إلخ. أما حقوق العباد فيشترط في التوبة منها أن يبرئ التائب ذمته، بإرجاع ذلك الحق إلى صاحبه ما وجد لذلك سبيلا. وإلا فليستحطل صاحب الحق وليعلمه بذلك لقوله (عليه السلام): «من كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عرض فليتحللّه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إلا الحسنات والسيئات». وقد بين الرسول كيفية الحساب على مظالم العباد يوم القيامة في حديث العلس فقال (عليه السلام) لأصحابه: «أتدرون من العلس؟» فقالوا: هو الذي لا درهم له ولا متاع فقال: العلس من أمّتي يوم القيامة من يأتي بضلّة وصيام وزكاة، ويأتي وقد ضرب هذا وشم هذا وسفك دم هذا. فيأخذ هذا من حسنة، وهذا من حسنة، حتى

إذا تغدت حسنة، أخذ من سيئات هذا فطرحت عليه، ثم طرح في النار» (رواه مسلم والترمذي).

يقول الدكتور الشرباصي: «والراجح عند العلماء أنه لا يشترط على التائب أن يذكر كل شيء لصاحب الحق، بل يكفي التعميم وقد بحثوا - فيما بحثوا - موضوع التوبة من الغيبة والقذف، هل يشترط أن يذهب التائب إلى من اغتابه أو قذفه، ويذكر له ذلك ليستسمحه؟^{٢٢} واختلفوا في ذلك» (ص: 56).

قلت : وبعد أن ساق حجج المحيزين والمانعين لإخبار التائب من اغتابه أو قذفه رجع القول بالمنع لما يترتب عن الإخبار من الإذابة وزرع العداوة والبغضاء فتكفي في هذه الحالة التوبة النصوح والملاطفة لمن اغتابه أو قذفه وذكره في الجامع بنقيض ما قاله فيه. أصناف الناس أزاء التوبة :

يقول تعالى: ﴿لَمْ أَوْثَرْنَا الْكَتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا، فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ، وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ، ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾. قال الإمام الحسن البصري في معنى الآية: «الظالم الذي ترجح سيئاته على حسناته، والمقتصد الذي استوت حسناته وسيئاته، والسابق من رجحت حسناته على سيئاته» انتهى.

قلت : إن التعبير القرآني في هذه الآية الكريمة يدل على كرامة هذه الأمة على الله، أمة الرسول محمد (عليه السلام) فهي محل الإصطفاء من الله بوراثته كتابه، وهي بذلك تتحمل أثقل الأمانات، وتتولى أضخم التبعات، ولكنها في ميزان التقويم لا تكون على درجة

سواءه، لأن مجرد الوقوع في معصية لا ينافي الإيمان والتقوى لأن
الرسول يقول: «كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون».

فالظالم لنفسه، هو الذي غلبت شهوته، وتحكمت فيه النفس
الأمارة بالسوء، فجاهر بالمعاصي واستعلن بفواحشه حتى فقد الحياء من
الله ومن الناس، لا يصون عرضا ولا يوعى ذماما، فهذا الصنف من
الناس غالبا ما يخطئه التوفيق فلا يتوب إلا توبة الموت التي لا يقبلها
الله، وهو القائل: ﴿وَلَيْسَ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا
حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ: إِنِّي تَبْتُ الْآنَ، وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ
كَفَّارٌ﴾ «النساء: 18». وهو من الصنف الذي عنه رسول الله بقوله :
«كل أمتي معافى إلا الجاهرين، وإن من الجناة أن يعمل الرجل بالليل
عملا، ثم يصبح وقد ستره الله فيقول: يا فلان: عملت البارحة كذا
وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه».

والصنف الثاني، هو المقصود: ممن خلطوا عملا صالحا وآخر
سيئا، ولكنه إذا ما وقع في الزلل لغلبة شهوته وطغيان هواه فإنه
يخشى أن يطّلع عليه الناس، ويراعى كرامته فلا تهون عليه، فهو
يخاف ويستر، وقد تحفظ فيه النفس اللوامة فيطلب التوبة والندم
ويطرق باب مولاه وهو ما يزال قادرا على الاستمرار في المعصية،
ولكن خشية الله تدركه فيستحي منه ويتوب إليه، فهذا الصنف ترجى
له المعافاة والمغفرة بالتوبة التي قال الله فيها: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ
لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّوءَ بِجَهَالَةٍ، ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ، وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ «النساء: 17».

وهم الذين عناهم الله بقوله في سورة آل عمران: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا قَاسِحَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاَسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ. وَمَنْ يَغْفِرَ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يَصِرُوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ. أُولَٰئِكَ جِزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنَعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ والآيات: 135-136.

والصنف الثالث: هم الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقُ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ، ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾، وهؤلاء هم الصفوة الأخيار، وفي طليعتهم رسل الله وأنبياءه ثم تليهم مرتبة الصديقين والشهداء، ثم مرتبة الأولياء والصالحين. فأما الرسل والأنبياء فقد باركهم السماء فعصموا من الدنيا، وأطصقاهم الله ليكونوا قدوة للبرايا، شهد الله لهم بالثقى والصلاح وحباهم بالرضى والغلاخ وقال في أمثالهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَا رَجَا وَرَهْبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾، والآية: 190.

قلت: ليس من العقوبة في ترتيب آي القرآن أن يرد بعد شهادة الله للأنبياء أنهم كانوا يسارعون في الخيرات، يرد ذكر الصديقة مريم بأن جعلها الله وابنتها آية للعالمين فهؤلاء الصديقون تقاتلوا في حب الله، واستغنوا به عن سواه، فأبو بكر الصديق (رضي الله عنه) كان في جوابه لرسول الله خير دليل على ذلك الحب المكين. حين أتى بكل ماله لرسول الله وهو يسأله في إشفاق، ماذا تركت لأهلك وأولادك؟؟ فيجيب الصديق بكل ثقة وأطمئنان: تركت لهم الله ورسوله. إنها تلك الشعلة المتوهجة في قلبه من الإيمان

وَالْخَبْرُ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، كَمَا شَهِدَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ بِذَلِكَ، حِينَ قَالَ عَنْهُ
لِأَصْحَابِهِ: «مَا فَضَّلَكُمْ أَبُو بَكْرٍ بِصَلَاةٍ وَلَا صِيَامٍ وَلَكِنْ بِشَيْءٍ وَفَرَّ فِي
صَدْرِهِ».

وَدُونَ مَرْتَبَةِ الصَّادِقِينَ، ثَانِي مَرَاتِبِ الشُّهَدَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ
وَكُلُّهَا مَنَازِلٌ لِلْقَرَبَى مِنَ اللَّهِ، وَكُلُّهَا مِنْ فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ يَسْتَرُ أَسْبَابَهَا
مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ. وَلِلسَّيْرِ فِي مَسَالِكِهَا رِيَاضَاتٌ رُوحِيَّةٌ وَأَتْمَاطٌ
سُلُوكِيَّةٌ، لَا يَتَجَاوَزُ فِيهَا الْعَابِدُ حُدُودَ الْوَسْطِيَّةِ وَالْإِعْتِدَالِ وَالرَّمُولِ هُوَ
الْقُدْوَةُ الْحَسَنَةُ فِي ذَلِكَ. لِأَنَّ الْإِعْرَاقَ فِي الزَّهْدِ وَالنَّصُوفِ لَيْسَ مِنْ
سُنَنِهِ كَمَا قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لَا تَكُنِي أَصْلِي وَأَنَامُ وَأَصُومُ وَأَقْطِرُ وَأَتَزَوَّجُ
النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنِ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي». جَعَلَنَا اللَّهُ مَعَ النَّبِيِّينَ
وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسَنَ أَوْلِيَّكَ رَفِيقًا.

- الصفة التاسعة : التزّهر عن الزور واللغو

(أ) - النص : ﴿والذين لا يشهدون الزور، وإذا مروا باللغو مروا كراماً﴾ والفرقان: 172.

(ب) - التحقيق اللغوي :

لا يشهدون: يكون بمعنى الشهادة أي الإخبار عن الشيء، ويكون بمعنى المشاهدة للشيء أي بمعنى الحضور. الزور: كل باطل من قول أو فعل مزيّن وزخرف: أعظمه الشك بالله. ويغلب استعماله على الكذب. اللغو: كل سقط من قول أو فعل بما لا خير فيه. كراماً: من الكرامة، وضّاء: اللؤم والسفاهة: أي يعرضون عن اللغو مزيّنين أنفسهم.

(ج) - البيان والتفسير :

للإيمان ركائز لا يقوم إلا عليها. وهي ما تقتضيه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله من الإيمان به وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره. وللبناء الإيمان محسنات وكمالات تزيده عظمة وشموعاً. والمؤمنون يتفاوتون في التحلي بها. وعباد الرحمن هم من النموذج العالي في التحلي بتلك الكمالات. ولقد صور رسول الله ذلك البناء الإيمانى فقال: الإيمان نيس وسعور شعة. أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إماعة الأذى عن الطريق. ومن كمال الإيمان أن يتحلّى المؤمن عمّا يشينه، وأن يستعد عن مواطن الشبه، فلا يتعرض لسفاهة العابثين.

وعباد الرحمن في مستواهم الإيماني والخلقي. لا يحضرون مجالس الباطل بكل صوفه وألوانه من كل ما ألقه المشركون في جاهليتهم من ضروب الزور سواء في معابدهم أو أعيادهم أو مجالسهم، ومن ثم لا يتصور أن يدلوا بشهادتهم كذبا وزورا لتفويت حق على أحد، أو إقراره لأحد بالشهادة له أو عليه، وفي كلتا الحالتين من شهادة الزور أو مشاهدته. ينزهون أنفسهم عن أحوال أهل الضلال والشرك. وقدوتهم في ذلك رسول الله في دعوته الحكيمة، وهو يؤم مجالس القوم داعيا مرشدا، والله يأمره أن يتجنبها عندما يخوضون في الباطل والزور. فقال حلّ من قائل في سورة الأنعام: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ، وَإِمَّا يَنْتَشِطِ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (الآية: 68). وفي سورة النساء يدعو الله تعالى عباده المؤمنين إلى تجنب تلك المجالس تسفيها لأهلها، واحترازا من غلبة الهوى وخطر التقليد، وصونا لكرامة الإيمان أن تحدث. فقال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا، فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ، إِنَّكُمْ إِذْن- مِثْلَهُمْ، إِنْ اللَّهُ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ (الآية: 140). وأما الزور بمعنى الشهادة: فمعناه الكذب والإفراء، وهو ما يتنافى مع الإيمان الصحيح، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ﴾، وقرن الكذب بالكفر في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (الزمر: 03). وينفي رسول الله أن يجتمع الإيمان

والكذب في قلب المؤمن. فيقول: «يطيع المؤمن على كل شيء» ليس
الحياة والكذب» (رواه البزار والطبراني).

وأعظم الكذب فحشا وزورا ما كان على الله ورسوله، قد ورد
قوله تعالى في سورة الزمر: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ
بِالصَّدَقِ إِذَا جَاءَهُ، أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ الآية: ١٣٢. وقال
في نفس السورة: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَجُوهَهُمْ
مَسْوُوفَةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ الآية: ١٦٠.

قلت: ومن أعظم الحزم عند الله في ذلك أن يصب أحد نفسه
للفتوى بغير علم فيحرم ما أحل الله أو يحلل ما حرم الله. وقد قال
رسول الله: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» (رواه
الشيخان وغيرهما).

الإعراض عن اللغو :

كلمة اللغو تعني كل ما لا فائدة فيه من قول أو فعل حتى في
إطار المباح من اللعب واللهو، لأنه يدخل في ذلك قبيحة الوقت عند
المسلم، فلا يصرفه إلا في ما هو نافع. ومن باب أولى أن يشغل الدنيا
التي ينتزعه عنها أصحاب المروءة من مجالس الفسوق والسفاهة والعصيان،
وعباد الرحمن أرفع من أن يؤموا تلك المجالس، أو أن يستكثروا من
سوادها. بل إذا صادفتهم في طريقهم بأن مروا عليها، فإنهم لا يدخلونها
صوتا لكرامتهم أن تداس، وحفاظا على أوقاتهم أن تهدر في ما لاخير
فيه كما يفعل السفهاء. ويستروح هذا المعنى من قوله تعالى في سورة

الفصحى ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ وقالوا لنا أعمالنا ولكم
 أعمالكم، سلام عليكم لا نبغي جاهلين﴾. ألا ترى إلى رسول الله
 كيف اعتبر كل ما يشغل المؤمن عن الإستماع إلى خطبة الجمعة لغوا،
 حتى ولو كان واجبا في غير ذلك الموقف مثل ودّ التعمية. وكان سيدنا
 عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يصور مثل هذا الكمال الإيمانى والخلفى.
 عندهما قال: كنا ندع صبيان بابا من الجلال مخافة أن تقع في الحرام.
 وقد اعتبر الله تعالى من نعيم أهل الجنة: ﴿أَنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا
 لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ الواقعة: 25-26. وقد نصّ الله
 تعالى أنه لا يؤخذ من اللغو في أيماننا، أي التي تجري على ألسنتنا من
 غير قصد ولا توكيد لها فقال في سورة المائدة: ﴿لَا يُؤْخَذُكُمْ بِاللَّغْوِ
 فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ الآية: 89.

- الصفة العاشرة : التذكر والإنعاط

(أ) - النص: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُجُوا عَلَيْهَا صَفًا وَعَمَانًا﴾ والفرقان: ١٧٦.

(ب) - التحقيق اللغوي :

ذُكِّرُوا تذكروا: يقال: تذكمت تذكروا واذكمت اذكروا وكلها مشتقة من الذكر. ضد النسيان. والذكر حضور المعنى للنفس، وقد يكون بالقلب، وقد يكون بالقول. ومن معاني الذكر: العلا والشرف. قال تعالى: ﴿وَلَهُ لَذِكْرُكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ والضمير للقرآن. يخرجوا: من حر يخرج خروجا وهو السقوط على غير نظام وترتيب. قال تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّفْعُ مِنْ قَوْفِهِمْ﴾ صفا: جمع أصم: الذي لا سمع. عميانا: جمع أعمى: غير البصر.

(ج) - البيان والظهير:

التذكر والإنعاط من فضائل الأخلاق التي حثَّ عليها القرآن الكريم بمختلف الصيغ. وهي من صفات عبادة الرحمان الذين يحملون بين جوانحهم قلوبا واعية، وضماير حية بقطعة، تستثير بصائرهم لكل إرشاد وتذكير يدعوهم إلى الفضائل وينقذهم من الرذائل. ومن طبيعة الإنسان أنه يغفل وينسى، وقد تصرفه الشواغل الدنيوية عن التأمل الروحي والمآلِق الوجداني، فيترصد الشيطان في حين غفلة ليضلَّه عن سواء السبيل، غير أن هؤلاء الأيوار لهم من قلوبهم الواعية، ومن ضمائرهم اليقظة حارس التذكر للتنبه على الخطر الداهم من الشيطان

وأعوأته. فإذا التحصينات السبعة تصدَّ العدو فلا يجد إلى قلوبهم سبيلاً. يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ «الأعراف».

وفي الآية الكريمة نفي لصفة الموصول، فهو نفي لحال أن يكونوا صفاً وعمياناً عند سماعهم للتذكير بآيات الله، وليس نفيًا لفعل الحُرُور الذي جيء به لتوطئة الكلام. كقولهم: فقد فلان يشتغني أو قام سكيء وأنت تقصد الإخبار بحال الشتم والبكاء، إذ ليس تمت قيام ولا قعود. وفي التعبير تعريض بالمشركين الذين يعرضون عن سماع القرآن، فينكسرون رؤوسهم إمعاناً في التفور والإعراض، كما تفعل النعامة عند رؤيتها للصيد. والله تعالى يصور حالتهم هذه في سورة فصلت فيقول على لسانهم: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ، فاعمل بآثَانَا عَامِلُونَ﴾ «الآية: ٥٥». وكذا تشبيه البليغ في سورة المدثر: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ. كَأَنَّهُمْ حُمْرٌ مُسْتَفْرَّةٌ، فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ «الآية: ٤٩، ٥٦».

وبصبغة الإنبيات جاءت صفة الحُرُور لعباد الرحمان إذا سمعوا آيات الرحمان تلى عليهم، فيكونون في حالة من الخشوع والتواجد بحيث لا يتمالكون من البكاء وهم ساجدون فقال جل من قائل:

أ - في سورة الإمراء: ﴿وَيَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ بَزْيُهُمْ خَشُوعًا﴾ «الآية: ١٥٨».

ب) وفي معنى هذه الآية في شأن القسيسين والرهبان من أهل

الكتاب جاء في سورة المائدة: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَوَلَّى أَعْيُنُهُمْ لَفِيفٌ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنْ أَحَقِّ﴾ «الآية: 85».

(ج) - في سورة مريم: ﴿وَمِنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرَوْا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ «الآية: 58».

(د) وفي سورة السجدة: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ «الآية: 15».

فآيات الله في القرآن ووظيفة الرسول في الدعوة والتبليغ تركّز على التذكير والإرشاد، حتى تستقيم نفوس المؤمنين على النهج السوي، وترتبط بالله في كل حين، فنجد التحريض على التذكر يتكرّر بالأساليب المختلفة تعرضت الآيات إلى النظر في ملكوت الله لاستحلاء عظمته وقدرته من خلالها، وقد لحص الله تعالى تذكير القرآن في قوله: ﴿وَلَقَدْ يَسِّرْنَا لِلْقُرْآنِ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ وكرّر هذه الآية عدة مرات في سورة القمر إثر كل قصة من قصص الأنبياء المذكورة فيها، كما حصر مهمة الرسول في التذكير الهادي فقال تعالى في سورة الغاشية: ﴿ذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمَصِيرٍ﴾ «الآية: 21-22»، والتذكر منازل ودرجات، أعلاها تذكّر جلال الله وعظمته حتى يمتلئ القلب حباً له وإجلالاً، وتطمئن النفس إلى عظمته وقدرته فلا تخشى حزناً ولا نكالا، يقول تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾، ويقول: ﴿وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخَيْفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ، وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ «الآية: 205».

ولا يكون الذكر بمجرد اللسان أو إذا تلى، أو تردد الأسماء
 الله الحسى، بل لا يتم الذكر المطلوب إلا بحضور القلب وتجاوبه مع
 ما ينطق به اللسان، والطاعة الخالصة لله تعالى هي التي تجتهد للمعنى
 الحقيقي للإنعاط و الذكر بحيث تكون ذاكرة لعظمة ربنا في كل
 حالة لأن استحضار عظمة الله يورث التقوى والخشية، وهما ملاك
 الإنعاط والإذكار، قال تعالى لوسوله: ﴿فذكر إن نعت الذكرى،
 سيدذكر من يخشى﴾ والأعلى: 10 04.

كما أن خشية الله و استحضار عظمته في قلب المؤمن تقوى
 وتسامي على قدر معرفته برتبه، ولا يتأتى ذلك إلا بإدمان النظر والتأمل
 في ملكوت الله في سحابة روحية تشرق فيها الأنوار الربانية
 للمساكين العارفين، وتلك منازل القرى عند الله يسرها لمن يشاء من
 عباده وهم المعنويون في قوله تعالى في سورة فاطر: ﴿كذلك إنما
 يخشى الله من عباده العلماء، إن الله عزيز غفور﴾ الآية: 28.

والله أعلم

- الصفة الحادية عشرة : الإتهال إلى الله وتطلب القدوة

أ) - النص : ﴿والذين يقولون : ربنا هب لنا من أزواجنا و ذرياتنا قررة أعين، واجعلنا للمتقين إماما﴾ (الفرقان:74).

ب) - التحقيق اللغوي :

هب لنا: دعاء لله أن يعطي لهم ذلك من فعل وهب: بهب: والولد، هبة
الله الثمينة لعيده قال تعالى: ﴿هب لمن يشاء إناثا وهب لمن يشاء الذكور﴾.
الأزواج: جمع زوج : وهو يصلح للرجل والمرأة، كلاهما زوج للآخر، ولا يقال
للمرأة : الزوجة في التعبير الفصيح. ذرياتنا: مفردة «ذرية» على وزن «فعلية» قبل
إنتها مشتقة من المر الذي من صلب آدم، وقيل من فعل ذرأ الله الخلق يذرؤهم
ذرءا، أي خلقهم. قال تعالى: ﴿وهو الذي ذرأكم في الأرض﴾. وهو يصلح
للوحد والجمع ويراد به - غالبا - الأولاد. قررة أعين: القررة: قبل مأخوذة من
«القرارة أي مكنون العين ما ليس له، وقيل من القرأ أي البرد، لأن دمع السرور
بارد قال الشاعر:

فكم سخطت بالأمس عين قريرة * * * وقرت عيون دمعها اليوم ساكب
إعاقا: من: ثم يؤم جمعه أيمة: وقيل هو جمع مفردة: أم كصائم جمعه «صيام».

ج) - البيان والتفسير :

الدعاء والإتهال إلى الله سلاح المؤمن. لأنه يؤمن بأن أمر التدبير
لشؤون الخلق يرجع إلى الله يتصرف فيها كيف يشاء وفق ما سبق في
علمه الأزلي وما تقتضيه حكمته في ما ينفع وما يضر. وهذا الإيمان لا
يتنافى أبدا مع سعي الإنسان واستعمال طاقته وفكره في الأخذ

بالوسائل والتمتع السن التي تحكم نظم الحياة . وتطلب جهد الإنسان .
 وعباد الرحمان إذ يستفدون جهدهم في إصلاح نفوسهم ، فهم
 يعتبرون أنفسهم مسؤولين على امتثاق ذلك الصلاح والخير ، وذلك
 بالعمل على نشره وتمكينه في المجتمع المسلم ، بدءاً من أزواجهم
 وذرياتهم . أمثالاً لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ
 وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ [التحریم ٥٥] . واختفاء بسمة الأخيار من أنبياء الله ورسله :
 فهذا أبو الأنبياء سيدنا إبراهيم (عليه السلام) كان يرفع قواعد البيت مع
 ولده إسماعيل ويدعوان الله تعالى لذريتهما بالصلاح والتقوى : ﴿ رَبَّنَا
 تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ
 ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ﴾ [البقرة : ١٢٦-١٢٧] . ودعاء إبراهيم في سورة
 الشعراء : ﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ إنما يعني امتداد
 الصلاح والتقوى في ذريته .

وقد قصَّ الله علينا موقف نوح مع ولده العاق كيف كان
 يلاطفه ويدعوه إلى فاقلة المؤمنين : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ
 الْكَافِرِينَ ﴾ وعندما دعا زكرياء ربه أن لا يقيه فرداً وقد بلغ من الكبر
 عتياً لم يطلب مجرم الولد ، بل توجه إلى مولاه بهذا الدعاء : ﴿ رَبِّ
 هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [آل عمران : ٣٨] .
 ولعمرة الزوج والولد الصالحين من أعظم النعم التي يمنحها الله
 لمن يشاء من عباده . حتى فسر بعض العلماء حسنة الدنيا بأنها المرأة
 الصالحة في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ
 حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [البقرة : ٢٠٩] . والرسول (عليه السلام) يعتبر

الولد الصالح امتداداً لذكر والديه في المكرمات والصالحات في حديثه المشهور: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» (رواه الترمذي والنسائي).

وقال في اختيار القرأة عند زواج المسلم: «فاظفر يداك الدين تربت يداك». وقال تعالى في شأن الأزواج الطاهرات: ﴿فَالصَّالِحَاتِ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ «النساء: 34».

ولما كان المعتقد الديني من أهم عوامل للاستقرار العائلي، فإن التوافق في الدين بين الأزواج مطلب شرعي أساسي في تكوين الأسرة المسلمة. فقال عز من قائل: ﴿وَلَا تَكُونُوا الْمَشْرِكِينَ حَتَّى يُبْعِثَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِكُلِّ فِتْنَةٍ سَوَاءٌ﴾ «البقرة: 219». وقال: ﴿وَلَا تَقْسُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ «المتحة: 10». والتعبير «قرة العين» تصوير لمنتهى السرور حين يسعد الإنسان بالحصول على ما يتمناه ذلياً وأخري فأما في الدنيا بكامل السعادة والهناء العائلي في كشف الأزواج الصالحات والذرية الطيبة، وأما في الآخرة فبوعد الله للمؤمنين الأوفياء أن يجمعهم الله بأزواجهم وذرياتهم في جنة الخلد إذ قال تعالى: ﴿جَنَّاتٌ عِدْنُ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ، فَهَنَمَ عَلَيْهِمُ الدَّارُ﴾ «الزمر: 20». وقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ «البقرة: 19».

قلت: إن التعبير لقرط السرور بقرة العين قد ورد وصفاً لنعيم الجنة في جزاء المتبحرين فلما وعدها الرحمن سبحانه إلى ذلك كما

تقدم، والله تعالى يصف ذلك الجزاء بقوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (السجدة: ٤٢).

ولأجل هذا الاستقرار العائلي المنشود فإن الشريعة الإسلامية، قد فصلت الحقوق الشرعية لكل من الأزواج والأولاد لأبَدٍ من الالتزام، بها ومراعاتها، وهي من الأسباب التي يأخذ بها المؤمن ويحتمل مسؤوليتها أمام الله، ثم هو بعد ذلك لا يستغنى عن مثل هذا الدِّعاء طلباً من الله أن ييسر له ولأهله طرق الهداية والتوفيق إلى ذلك الصلاح المنشود.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

إمامة الدين، وطلب القدوة في الصلاح والتقوى أمر مرغوب فيه، إتباعاً لسنة الله في رسوله، إذ جعلهم قدوة للبشر، وأسوة لهم في الخير والهدى، ودعا المؤمنين إلى الإبتساء بهم فقال جلّ من قائل: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١)، بل اعتبر القرآن قوافل الإيمان والهدى والخير يهتدي بعضها ببعض في مسيرتها على طريق الله، فجعل من أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم إماماً للناس في الدعوة إلى توحيد الله والالتزام بشرعته فقال تعالى: ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ. قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ (البقرة: ١٢٣). ثم قال مخاطباً رسوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبِهِدَاهِمَ آفَقَةٌ﴾ (الأعام: ٤٥). وقال بصيغة الجمع لجميع المؤمنين: ﴿لَقَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ، إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بِرَأْيِكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن

دون الله كفرنا بكم وبدا بينا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى
تؤمنوا بالله وحده» (المتحة: ٥٤). ويتبين من هذه النصوص أن ظهور
العنصر الصالح في المجتمعات لا يعني طلب الرئاسة والظهور وحب
المجد، بل هو للإقتداء والإعتداء بهم. فهم يطلبون الإمامة للمعتق
إستدامة للخير، وتذكينا للفضيلة أن تستمر في الأجيال لأن نصرة الحق
لا تتحقق بالإتكاش والإنزواء في المعابد، والجهاد لإعلاء كلمة الله،
إنما يكون بالمصاولة في الميدان، وخوض الشجاع واحترق الصقوف.
والله تعالى يقول في شأن الدعاة إلى الله والهداة لدينه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ
أُيُوتَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السحة: ٥٤).
ومن بعد رسل الله، غير عباد الرحمان حذاة في موكب الإيمان؟
يمدونه بالطاقة والقدرة على مواصلة السير في الطريق المستقيم،
ومواجهة كل التحديات التي تحاول تحريف القافلة عن مسارها
الصحيح. وتلك مهنة لا يحتلها إلا هؤلاء الأفاضل من الرجال
الأوفياء. جعلنا الله منهم.

والله أعلم

الجزء الأوفى

(أ) - النص : ﴿أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها نحية وسلاما، خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما، قل ما يعجزا بكم ربي لولا دعاؤكم، فقد كذبتم فسوف يكون لزاما﴾ (الفرقان: ٤٧٧).

(ب) - التحقيق اللغوي :

الغرفة: البيت العلوي، يجمع على غرف وغرفات، والمقصود بها طبقات الجنة يقول تعالى: ﴿لهم غرف من فوقها غرف مبية تجري من تحتها الأنهار﴾، ويقول: ﴿وهم في الغرفات آمنون﴾. يُلَقَّونَ: ماضيه: لَقَّاهُ: قال تعالى: ﴿ولقاهم نصرة وسرورا﴾ بمعنى يستقبلون الشيء، ويلقونه ماديا أو معنويا. ما يغشأ: ماضيه غشأ بكذا: أي احتم به، مشتق من الغشي: أي الحمل الثقيل. وما يعجزا بكذا: كناية عن قوة العناية. الزامًا: مصدر لَزَمَ، ملازمة والزام. أي عدم مفارقة الشيء، والإحجام بالمصدر يقصد به المبالغة.

(ج) - البيان والتفسير :

بعد انتهاء تلك الجولة في بيان صفات عباد الرحمن وتعداد مزاياهم بين الله تعالى في نهاية المطاف ما ينتظرهم من جزاء، فصدر الآية باسم الإشارة «أولئك» إلى كل متقدم، وهو خير عن قوله تعالى: ﴿وعباد الرحمن﴾. والصفات المذكورة تعوت معطوف بعضها على بعض، ومجيء صفة الإستهال إلى الله في مؤخرة الترتيب للدلالة على أن سعي الإنسان ومجاهدته في التحلي بتلك الصفات، لأبد فيها من الاستعانة بالله وطلب توفيقه لأنه لا حول عن معاصي الله إلا بعصمة

من الله، ولا قوة على طاعة الله إلا بعون من الله، فهؤلاء الأبرار قد أخذوا بسنة الحياة في الأخذ بالأمسيات ثم بالإلتجاء إلى الله في تذليل الصعاب.

﴿أولئك يحزون العرفة بما صبروا﴾ والتعبير بالعرفه في تقرير الجزء يعني أنهم في الدرجات العلى من الجنة «وَأُولَئِكَ فِيهَا مُلْحَسُونَ» لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي الْعُرْفَاتِ آمِنُونَ﴾. وقد حدّد الله منازل الجنة في قوله: ﴿لَهُمْ عَرْفٌ مِنْ فَوْقِهَا عَرْفٌ مَبْنِيَةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ ويخصّص أعلى مراتبها للذين أنعم عليهم من السّيبين والصدّيقين والشهداء والصالحين.

وذكر الله صفة الصبر مسا لذلك الجزء ليبيّن أنهم مستحقون لذلك ولم يذكر متعلق الصبر ليشمل كل الأنواع المطلوبة في مجال الطاعات وأن الله يزيدهم إكراماً وإحساناً بالنّحية والسلام تلقاهم بهما الملائكة، أو يلقاهم الله وكلاهما وارد في آيات أخرى كقوله تعالى: ﴿تَحْتَهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ «الأحزاب: 44». وقوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ، سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ «الزّمر: 25».

﴿حسنت مستقرّاً ومقاماً﴾ والمراد به الدوام والاستقرار. ﴿قل ما يعأ بكم ربّي لولا دعاؤكم﴾ الخطاب موجه إلى رسول الله، فهو الداعي إلى الله، وهو المبلغ عن الله بأنّه لم يخلق الثقلين إلّا لعبادته، وهو الغنيّ عنهم، لا تنفعه طاعة ولا تضرّه معصية. بل هم الذين يستفعون بتلك الطاعة. فقوله تعالى: ﴿مَا يَعْأ بَكُمْ رَبِّي﴾ معناه: ما

يألي وما بهنم، كناية عن قلة الإكثارات لأمر إذا كان لا وزن له عند المتحدث. ولفظ «ما» يحتمل أن يكون للإستفهام أو للنفي.

﴿لولا دعاؤكم﴾ فيه احتمالان: أن الدعاء مضافاً إلى مفعوله، أي لولا دعاؤه إياكم، والداعي هو الله، يدعو خلقه إلى عبادته: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ أو الداعي هو الرسول يدعو الناس إلى الإسلام، والمعنى على هذا التقدير، لا يألي بكم ربي لولا دعاؤه إياكم لعبده.

والإحتمال الثاني: أن يكون الدعاء مضافاً إلى الفاعل: أي لولا دعاؤكم إياه، واختلف المفسرون على هذا الإحتمال في تقدير معنى الدعاء فقالوا: هو الإيمان، أو العبادة، أو هو الاستغاثة بالله في وقت الشدة، أو هو الشكر على معنى قوله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾، ﴿فَقَدْ كَذَبْتُمْ لِسُوفَ يَكُونُ لَكُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ قوله: ﴿لولا دعاؤكم﴾ والتقدير دعاكم الله إلى عبادته، أو دعاكم الرسول إلى الإسلام فكذبتم، ويتعين الخطاب للمشركين ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لَكُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، وضمير «يكون» عائد إلى التكذيب، أي يكون تكذيبكم ملازماً لكم بما يترتب عليه من العذاب في الدنيا والآخرة، وذهب عبد الله بن مسعود وغيره أن العذاب الدنيوي للمشركين هو ما حل بهم يوم بدر كما روي عنه أنه قال: اللزام هو التكذيب نفسه، أي لا يعطون التوبة منه.

قلت : أي أن ذلك على قاعدة الإمام جابر بن زيد: «من أزم شيئاً لنفسه أزماء له».

ولعل التفسير الأخير لعبد الله بن مسعود أنسب نظراً للعموم
معناه: فيدخل فيه ما أصاب المشركين يوم بدر وغيره في كل زمان
ومكان مصداقاً لقوله تعالى في سورة الرعد: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا
نَصِيحُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً، أَوْ تَخْلُقْ قَرِيْبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ
اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ والآية 32.

فلا كرامة لهذا الإنسان إلا في حظيرة الإيمان بخالفه وارتباطه
بمنهجه القويم، لأن الكفر والضلال دلة وهوان، ورسول الله هو الهادي
الأمين في موكب البشرية على طريق الإيمان والإسلام لله، وفي هذا
الخطاب الإلهي سرية لنفسه الشريفة وإمداد روحي يقوي إرادته
وعزمته في البلاغ والدعوة - والحمد لله رب العالمين -.

الخاتمة

لقد تمت جولتنا في تفسير هذه الآيات من خواتم سورة الفرقان - بفضل الله - وكان الجمهور الكريم في المسجد الجامع بمدينة العطف، ينصت بشغف ويتابع باهتمام بالغ ببيان صفات عباد الرحمن، حتى كان كل فرد من الحاضرين يحاول أن يكون أحد الذين تتحقق فيهم تلك الصفات، وكان لعبادة الصوم وقدمية المكان في بيت الله إيجاعاتهما البالغة في نفس كل مؤمن، حتى لكان الآيات المفترقة نزلت لحيتها، وحين تقبل النفس المؤمنة بكل جوانحها لتنصت لكلام الله وتتجاوب مع إرشاداته وتوجيهاته في رحاب بيت الله، فإنها تسمو عن نزوات الهوى وتتجافى عن نقائات الطين، وبذلك تنهأ لحسن التلقي وبركات التوفيق وصدق مولانا العظيم إذ قال في سورة التوبة: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ، أَتَكْفُرُ بِهَذِهِ إِيْمَانًا؟﴾ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون، وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴿ الآية: 125- 126. ».

فإلى كل النفوس المؤمنة أقدم هذه الجهد المتواضع من تفسير هذه الآيات البينات، وأنا أرجو لها من الله مزيداً من الهداية والتوفيق، وفيضا من البشارة والرضوان، كما أرجو الشفاء لكل نفس أُلِّمَ بها مرض الغفلة والنسيان، فوقعت في الإثم والعصيان، أن يأخذ الله بيدها

إلى مسالك الإنانة والتوبة، ويوقّر لها موحيات الرحمة وعزالم العفو
والغفران، عساها تكون - بفضل الله - من عباد الرحمان.

المطّف يوم الجمعة 04 ذو الحجة 1417 الموافق لـ 11 أبريل 1997

المؤلف: سعيد محمد ابراهيم كعباش



في الناس من خلفوا عباد للرحمان أو عباد للشيطان. ولكل من الفريقين
الحزاء الأوفى عند الله، فإن كنت حقاً — أيها الأخ المسلم — من
أتباع محمد — عليه الصلاة والسلام — فإن رسول الله كان خلقه
القرآن. وفي هذه السلسلة من «أخلاق القرآن» تجد ما يرشدك لتكون
من عباد الرحمان — بإذن الله — إن أنت أحسنت قراءتها بوعي وتدبر.

- والياف -
الشيخ كساب